زوجات الأنبياء عليهم السلام

وأمهات المؤمنين رضي الله عنهن

محمد علي قطب

الدار الثقافية للنشر

زوجات الأنبياء عليهم السلام
وأمهات المؤمنين رضى الله عنهن

تأليف

محمد على قطب

الدار الثقافية للنشر

عنوان الكتاب : زوجات الأنبياء عليهم السلام
وأمهات المؤمنين رضى الله عنهن
تألـــــيف : محمد على قطب
14 x 21 سم . 192 ص .
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : 2003/9337
اسم الناشر : الدار الثقافية للنشر

Zogat Al Anbia'i

Mohammad Ali Qutb
14 x 21 cm. 192 p.
ISBN: 977 - 339 -120 - 5

الطبعة الأولى

1425 هـ/ 2004 م

الدار الثقافية للنشر - القاهرة
ص.ب 134 بانوراما اكتوبر 11811 - تليفاكس 4035694 - 4172769
Email: nassar@hotmail.com

الفهرست

الصفحة | الصفحة

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شئ قدير ، ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا "محمداً" عبد الله ورسوله ، وصفيه من خلقه وحبيبه ، أرسله الله تعالى بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، فبلغَ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة ، وكشف الله به الغمة ، وتركنا على المحجَّة البيضاء ، ليلها كنهارها لا يضل عنها إلا زائغ هالك ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله ، وصحبه أجمعين ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين

وبعد . . .

فما أكثر ما كتب فى قصص الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ـ بدءاً من " آدم " عليه السلام ـ إلى " محمد "[1]

وتنوعت تلك الكتابات بين التفصيل والإسهاب وبين الاختصار والإيجاز ، وكان للقرآن الكريم فضل كبير فى الحديث عنهم وعن الأمم والشعوب التى أرسلوا إليها وعن دعواتهم ، وعماعانوه فى ضبط مسيرة تلك الأمم وفق المنهج الربانى الذى أرسلوا به ،

---

(١) تميزت الكتابه عن حياة / سيدنا رسول الله ﷺ باسم "السيرة" ، فأصبحت علماً ؛ يعرفه حتى غير المسلمين .

كما أن القرآن الكريم سمى بعض سوره الشريفة باسم الأنبياء "يونس" و "هود" و"يوسف" و"إبراهيم" و "محمد" و"نوح" . . . !

أضف إلى ذلك إجمالهم ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ في سورة "الأنبياء" . . !

وفى غضون الحديث عنهم وتناولهم جاء ذكر زوجاتهم بين مدح وذم، حسب ما كانت عليه الزوجة من سلوك يتوافق أو يتعارض مع مضمون وحقية ما كلف به الزوج النبى فى الرسالة ، وأمانة تبليغها .

ولقد عكف مؤرخونا وعلماؤنا منذ أمد بعيد وفى العصور المتأخرة على الحديث عن زوجات الأنبياء ضمن السرد التاريخى لحياة النبى المرسل واختلط ذلك بعضه ببعض ، وكان أكثر أولئك يميل إلى ما ورد من الإسرائيليات فى المأثور ، فأصبحت الصورة مشوشة غير واضحة المعالم، لا يعرف فيها الغث من السمين .

أضف إلى ذلك التزيدات التى شذت عن الحق والمنطق السليم بالتعويل على ما جاء فى "توراة" أهل الكتاب

من هذا المنطلق وددت أن أُفْرِد ـ قدر الإمكان والمستطاع ـ حياة (زوجات) الأنبياء ـ عليهم السلام – فى كتاب . . !

ولكننى اضطررت إلى الالمام بحياة النبى ، فإن ذلك من مقتضيات البحث ، فحياة زوجة النبى ـ أى نبى ـ. لا تنفصل عن حياة زوجها ؛ فهى جزء من كيانه وشريكته فى رحلة الحياة . . !

استعنت بما أورده المؤرخون لبعض الأسماء والتفاصيل ـ نقلا عن أهل الكتاب ـ فإنى أشرت إلى ذلك واضحا حتى لا يلتبس على القارئ ولأكون ملتزما بالأصول القرآنية والسنّة الشريفة .

وأيضا . . . !

فإنـى لا حظـت فى الآونة الأخيرة [1] ، وأُطلعت على كتابات منتشرة مختصـرة ، فيها قليل من الجهد وبعض المغالطات لحياة (زوجات) الأنبياء ـ علـيهم السلامـ، فأردت من خلال كتابى هذا أن أفصل وأُبين وأطول . . . وأصحح الخط البيانى ! .

ولا يسـعنى فـى هـذا السياق إلا أن أشكر صاحب ومدير الدار الثقافية للنشـر الأخ العزيز الحاج فتحى نصار إذ كان له فضل كبير فى لفت نظرى إلى موضوع هذا الكتاب ـ والحمد لله .

وأخـيراً أسـأل الله تعـالى أن يجعل عملى هذا مقبولاً عنده ، وفى ميزان حسناتى يوم القيامة ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

القاهرة فى غرة رجب الحرام ١٤٢٤ هـ

الموافق ٢٩ أغسطس ٢٠٠٣م

محمد على قطب

---

(١) فى شهر "رمضان المبارك" لعام (١٤٢٣هـ) . جزى الله تعالى كاتبها خير الجزاء

"حــواء" - عليها السلام -

- أمنا " حواء " . . . أم البشر جميعا "
- أول أنثى خلقت . . . ، وأول أمرأة حملت وولدت .
- وأول زوجة نبىّ

خلق حوّاء

يقـول الله تعـالى فـي سورة الإنسان ﴿ يَـٰٓأَيُّـهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّـقُـواْ رَبَّكُـمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء : ١)

وقـال تعـالى فـى سـورة "الأعـراف" ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (الأعـراف : ١٨٩)

والمقصـود بالـنفس الواحـدة "آدم - علـيه السـلام - ؛ إذ سـبق خلق " حواء ؛

ويـروى عـن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن ابن مسعود - رضى الله عـنه - عـن جماعة من الصحابة ، قالوا : (أخرج إبليس من الجنة ، وأسكن

"آدم " الجنة فكان يمشى فيها وَحْشياً ليس له فيها زوج يسكن إليها ، فنام نوْمةً فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة ، خلقها له الله من ضلعه ، فسألها : من أنت ؟ قالت : أمرأة ، قال : ولم خُلقْت؟ . قالت : لتسكن إلى .

فقالت له الملائكة ـ ينظرون ما بلغَ منَ علمه ـ : ما اسمها يا "آدم" ؟ قال "حواء" قالوا : ولم كانت "حواء"؟ قال : لأنها خلقت من شئ حى) (١)

وفى الصحيحيْن عن أبى هريرة " ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ ، أنه قال : (استوصوا بالنساء خيراً ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج شىء فى الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيراً)(١)

وروى "محمد بن إسحاق " عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أن "حوآء" خلقت من من ضلع "آدم" الأيسر ، وهو نائم ، ولأم مكانه لحماً .

إسمها :

كذا ورد اسمها فى "التوارة " عند أهل الكتاب ، ولكن دون تعليل أو بيان ، على عكس ما ورد فى الأثر الشريف الذى رواه "ابن عباس" و"ابن مسعود" عن جماعة من الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ .

ولقد عرف الإسم عند العرب ، فسَمُّوا به وتعورف عليه ، ووجدت فى الصحابيات ـ رض الله عنهن ـ أربعة غرفن به (١)

---

(١) رواه "السدىّ"

(١) هذا لفظ "البخارى"

(٢) الاصابة لـ ابن حجر "

"آدم" و "حواء" و الخطيئة !!

يقـول الله تعـالى ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ (البقرة : ٣٥) .

فكانا يتنقلان فى أنحاء الجنة ورياضها ويتمتعان بظلالها وثمارها وعذوبة مياهها ، ولا ينكد عليهما صفو عيشهما أى نكد ، فالرضوان يغمرهما ، وعين الله ترعاهما .

وفى ذات يوم ـ بينما كانا فى تطوافهما ـ وصلا إلى تلك الشجرة التى نهيا عنها ، وهى لا تختلف فى أغصانها وثمارها عن غيرها ، فقط كان النهى عنها اختباراً من الله تعالى لهما على الطاعة ، وامتحانا على الالتزام بالأوامر واجتناب النواهى .

عندها وسوس لهما الشيطان أن هذه الشجرة هى شجرة الخلد ، فإذا أكلا منها صارا ملكين خالدين ، لا يجرى عليهما الموت وأحكام الفناء ، ولكنهما امتنعا عن موافقة "إبليس" وحاولا الارتداد والهروب ، فأعاد الكرة وراح يزين لهما أمر المخالفة ويهون عليهما النتائج ، ويغريهما بطيب ثمر تلك الجنة ، حتى وقعا فى الفتنة وأكلا من الشجرة!

عندئذ انكشفا ، وبدت لهما سوآتهما [1] . ، وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ، ليواريا السَّوْأة ويسترا العورة ؛ كما شعرا بفداحة الخطأ وعظم الذنب .

يقول الله تعالى على لسان "إبليس" ﴿ وَقَالَ مَا نَهَـٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ

---

(١) سوآتهما : عوارتهما ، كل ما يسيء الإنسان ظهوره للناس .

ٱلۡخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ (الأعراف: ٢٠-٢٢)

هنا تذهب "التوراة" إلى أن "إبليس" تمثل فى حية، وأن الشجرة هى شجرة التفاح . . ، وأن "حواء" هى التى أغرت "آدم" و أغوته فوقعا فى الخطيئة ، ومن ثم تحمّل "التوراة" "حواء" إثم الخطيئة الأولى، وذلك فى صلب العقيدة عندهم .

كما ذهب بعض المفسرين عندنا إلى تجشم بيان ماهية تلك الشجرة ، وقالوا فيها أقوالاً شتى متأثرين بالإسرائيليات .

والحق الذى لا مرية فيه ولا جدال هو ما جاء فى القرآن الكريم ؛ يقول الله تعالى ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ (طه: ١٢١)

فالعصيان كان من "آدم" ـ عليه السلام ـ ؛ والوسْوسة كانت من الشيطان.

والوسوسة ـ كما يقول "الجوهرى" فى "الصحاح" : (حديث النفس، يقال : وسوست إليه نفسه وسوسةً ووسواساً (بكسر الواو) والوسواس (بالفتح) : الإسم ، كالزِّلزال والزَّلزالَ . وقوله تعالى : ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾ (الأعراف: ٢٠) يريد: إليهما ولكن العرب توصلُ بهذه الحروف كلها الفعل ويقال لصوْتِ الحُليِّ وسواس ـ والواسوس أيضا : إسم الشيطان)إ. هـ.

ومرجع ذلك كله النفس الإنسانية الَتِى ركبت فيها نزعة الخير ونزعة الشر ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ (الشمس: ٨) .

ولا تعنينا شجرة التفاح ولا الحية بقدرما تعنينا المخالفة والعصيان ، وذلك هو المقصود! .

كل ذلك قبل نبوّة "آدم" ـ عليه السلام ـ ، فقد استتبع المعصية التوبة والإنابة ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ ، وكذلك الهبوط من الجنة إلى الأرض ﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (البقرة: ٣٦ ـ ٣٩)

"آدم" ـ عليه السلام ـ بين النبوّة والجحود؟

ومن عجب أن يذهب بعض العلماء إلى جحود نبوة "آدم" ـ عليه السلام ـ مع ضعف الدليل عندهم ، وجادلوا فى ذلك جدالاً كثيراً ، وشاحنوا مشاحنةً واسعة ، ولكن أين يذهبون ! ! والله تعالى يقول ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (آل عمران : ٣٣) ويقول : ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ (طه : ١٢١ ـ ١٢٢) .

أين يذهبون بالاصطفاء والاجتباء ؟!؟

أين كان الهبوط ؟

أكثر الأقوال فى ذلك إسرائيليات ، أو منسوب إلى التوراة التى بين أيدى أهل الكتاب وأشهرها أن مكان الهبوط كان فى الهند!؟ وبعضهم

مال إلى أنه كان فى جزيرة العرب ، كما قال آخرون أنه كان فى "دمشق" . وكلها أقوال لا ترقى إلى مرتبة اليقين .

"حواء" الزوجة والأم:

يقول الله تعالى فى سورة (الأعراف) : ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (الأعراف : ١٨٩)

وبدأت عملية الإنجاب ، والتكاثر بتقدير وتدبير من الله تعالى، والإجماع بين العلماء والدارسين والمؤرخين على أن حواء ـ عليها السلام ـ كانت تحمل كل مرة بتوأم ذكر وأنثى ؛ فكان آدم ـ عليه السلام ـ يزوج ذكر الحمل الأول لأنثى الحمل الثانى ، ثم العكس . . ! ، بقصد التنويع ، وما من شك فى أن ذلك التدبير كان من وحى الله تعالى له .

وكانت حواء ـ عليها السلام ـ نعم الزوجة سكنا ومودة ورحمة لزوجها "آدم" ـ عليه السلام ـ ، كما كانت نعم الأم لأولادها رعايةً وعناية وتربية .

بين "قابيل" و"هابيل"

أما "قابيل" فقد كان ذكر التوأم الأول ، وأما "هابيل" فقد كان ذكر التوأم الثانى ، والإسمان من مدرجات "التوراة" و مأثور الإسرائيليات ،

مع اجتماع مؤرخينا على ذكرهما بالنص ، مع اختلاف بسيط فى إسم " قابيل " ، إذ تذكره التوراة باسم " قايين " . [1] .

ومع مرور السنين والأعوام ، وتعاقب الليالى والأيام ، كان الأطفال يكبرون ، ويدرجون ثم يمشون ، ويشتد عودهم ، وتلتف سواعدهم ، ويبدو " قابيل " و " هابيل " قادرين على ممارسة أنواع من النشاطات والرياضات ، والتصدى لقساوة الطبيعة وتقلباتها ، وكذلك لرد عدوان السباع والضوارى من الحيوانات ، ولقد كانا خير عون لـ " آدم " أبيهما فى تأمين معاش الأسرة وعيشها .

كان يلف الأسرة الصغيرة ، والخلية البشرية الأولى جوٌ من التعاطف والود والتعاون ، وترفرف عليهما المحبة والألفة .

وكانت الفتاتان تكبران أيضا ، وتتخلقان . . وتضفى عليهما الأنوثة ملامح الضعف من ناحية والجاذبية من ناحية أخرى ، فكان " قابيل " و " هابيل " يتنافسان على إرضائهما وتلبية حاجاتهما ويبذلان قصارى جهدهما فى حمايتهما ، وتوفير الهناء لهما ولا يقصر " قابيل " و " هابيل " مع أبويهما " آدم " و " حواء " ، ويعملان ولا يملان ويكدحان ولا يتعبان .

الراعى . . . . والزارع .

ولقد كان لاختلاف حاجات الأسرة من موارد المعيشة وأسباب الحياة أثره فى تنوع النشاطات ، وحيث أن الأرض بما استودع الله فيها من سر العطاء ، كانت مع تقلبات الفصول وتبدلها تَنْضُر أحيانا وتزهر وتثمر . . أو تستريح وتتهيأ حينا آخر .

---

(١) وجاء فى التوارة أيضا أن أسم اخت " قابيل " التوأم : " قليما " والله أعلم ـ .

لـذا فـإن " قابـيل " قـدا استهوته وألفها ، وأقبل على التعامل معها ، يشـقها ويسـتنبتها ، ومـن ثـم يجنى خيراتها وثمارها ، ويكفى نفسه وأهله المؤونة ، من فصل إلى فصل ومن موسم إلى موسم .

وهكذا تعلم الفلاحة والزراعة .

أمـا " هابـيل " فقـد اتخـذ سـبيلاً آخـر . . ؛ إذ وجـد فـى ألـبان الماشية وأصـوافها وجلـودها ولحـومها أكثـر مـن مصدر خير وعطاء ، وهى تلبى أشـتاتا مـن ضـرورات الحياة وحاجـات العـيش . فعـول علـيها يـرعاها ويسـمنها ، وقـد يبيت إلى جانـبها فـى حظائـرها حمايـة لهـا ، ومحافظـة علـيها . . ، وهـا هـى تتكاثـر ، وتحمل وتضع ؛ فإذا أعدادها تزيد ، وإذا بالخير يتدفق ـ والنعيم يعم الأسرة .

وكانـت الفـتاة البكر التى ولدت توآما لـ " قابيل " أجمل من أختها توأم " هابـيل " وقـد بلغـت مـرحلة الشـباب والفـتوة والنضوج ، فكانت تميل بقلـبها وعـواطفها إلى "هابـيل " ، وهو يبادلها نفس الشعور، وكان ذلك إلهاما من الله تعالى ، وحكمة منه سبحانه .

وكَـمْ حـاول " قابـيل " أن يشـدها إلـيه ، أو يمتلك زمام عواطفها ، أو يسـتأثر بقلـبها ، لكنها لم تتأثر ولم تنفعل ، وظل حبل الود موصولاً بين القلبين النابضين بالحب قلبها وقلب " هابيل " .

وراح الشيطان (إبليس) يبذر بذور الحقد والحسد فى نفس " قابيل " . . فكمـا أتعـس " آدم " و " حـواء " وأشقاهما بالخروج من الجنة ، وأغواهما بالمعصية ، كذلك يفعل اليوم ، لأنه لا يريد لـ " آدم " و " حواء " وذريتهما أن ينعموا بالرضا والرضوان .

وهـل ينسـى " إبلـيس " عداوتـه الأزلـية لــ " آدم " يـوم أمره الله تعالى بالسـجود ، فأبـى واسـتكبر ، وتـوعد وأنـذر ، فلمـا سـنحت له الفرصة

بالانتقام لم يتأخر . . ووسوس لـ "آدم" فأغواه وأوقعه في جب العصيان، وكان الطرد من جنة الرحمن.

وأعاد "إبليس" الكرة . . !، إذ عشش في نفس "قابيل" واستحكم منها، وقعد مقعده . . ! فأصم أذنيه عن السمع، وغشى عينيْه عن الرؤية . . !، ثم حركه في جوارحه وأطرافه، فهجم على أخيه "هابيل" في ساعة خلوة، وأطبق عليه غدراً ولم يفلته من بين يديه إلا جثة هامدة . . قد غاصت في دمائها!!

ووقف غير بعيد ينظر إلى ما قدَّمَتْ يداه وفعلت . . فاضطربت نفسه وهاج فؤاده، وأحس بوطأة الجناية على ذاته ووجدانه وشعر بفقدان الأخ والعضد ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ (المائدة: ٣٠)

وبدأت نفسه اللوامة تعمل عملها، ووقع في وهْدَة الأسى والحزن، والحيرة والتردد وفقد كل ذرة من اتزان التفكير . . !

ماذا فعل؟ ولماذا؟ وكيف يتصرف؟

ثم قعد على صخرة ملوما محسوراً، وقد أثقلته الهموم، ولم تقدر قدماه على حمله.

وعلى قيد خطوات منه حط غراب فراح ينكش الأرض بمنقاره ومخالبه، حتى حفر حفرة أودعها بعض ما كان يحمل، ثم أهال التراب ثانية في الحفرة، وطار في الجو محلقاً.

وكان هذا الغراب بعثاً من الله تعالى، أرسله ليعلم "قابيل" كيف يواري جثة أخيه القتيل "هابيل" ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾ (المائدة: ٣١)

طير يعلم الإنسان !!؟؟

تلـك ولا شك حكمة بالغة ، لها أكثر من مدلول ومفهوم، ويكفى فيها أن الله تعـالى بيده وحـده أمور الخلق ، بشراً كانوا أم حيواناً . . أم طيراً أم جماداً . . . . . . أم نباتاً . . !

وشُـدت عـيون " قابـيل " إلى الغـراب وعملـه ، وكذلـك شد تفكيره واهـتمامه ، فـلما رأى مـا رأى قـال متحسـرا متـنَدِّماً : ﴿يَـٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ﴾ . ثـم قـام إلى عملـه . . إلى الجـثة الممـددة . . يَجُـرُّ ساقيه . . . وتأكل قلبه الحسرة . ويذرف دموع الندم .

ولكـن أنـى له أن يـتطهر أو يسـتغفر وقد نهر الدم الإنسانى الأول على مذبح الشهوة والهوى، وعصى ربه وأطاع الشيطان فغوى !!

وصـدق سـيدنا رسـول الله ﷺ إذ يقـول : (لا تقـتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها ، لأنه كان أول من سن القتل) [(١)]

وفجع " آدم " و " حواء " بولديهما البكرين . . !

وقـيل بأن " قابيل " قد عجلت له عقوبته فى الدنيا ، إذ علقت ساقه إلى فخـذه ، وجعـل وجهـه إلى الشـمس كـيفما دارت ، تنكيلاً به لذنبه وبغيه وحسده لأخيه .

وصـح عن رسول الله ﷺ قوله : (ما من ذنب أجدر أن يعجِّل الله عقوبته فـى الدنـيا ـ مـع مـا يدخـر لصـاحبه فـى الآخـرة ـ مـن الـبغى وقطـيعة الرحـــم)[(٢)] .

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه .

(٢) رواه الترمذى وأبو داود وابن ماجة .

وقيل فى "التوراة" المنسوبة إلى أهل الكتاب بأن "قابيل" قد هجر أهله وابتعد عنهم ، وسكن فى أرض "نودن" شرقى "عدن" وهناك تكاثر نسله .ـ والله أعلم ـ

وسرعان ما عوض الله تعالى "آدم" و"حواء" فولد لهما "شيث" ، ومعنى كلمة "شيت" كما أوردها المفسرون المؤرخون : (هبة الله) أى أنهما سمياه بذلك لأنهما رزقاهُ بعد مقتل "هابيل"

وعاش "آدم" و"حواء" عمراً طويلاً ، يزداد فيه نسلهما و يتكاثر ، وقد بالغ الرواة فى ذلك مبالغة كثيرة وكبيرة، والله أعلم بذلك ، فلا نجزم بواحدة منها .

ولما حان أجل "آدم" ـ عليه السلام ـ كما يروى الإمام "أحمد" بسند صحيح عن "أُبيّ بن كعب" (قال لبنيه : أى بنيَّ إنى أشتهى من ثمار الجنة ؟! فذهبوا يطلبون له ، فاستقبلتهم الملائكةَ ومعهم أكفانه وحنوطه ومعهم الفؤوس والمساحى والمكاتل ، فقالوا لهم : يابنى آدم ما تريدون وما تطلبون ؟ قالوا : أبونا مريض واشتهى ثمار الجنة ، فقالوا لهم : ارجعوا فقد قضى أبوكم فجاؤا فلما رأتهم حواء عرفتهم ، فلاذت بـ "آدم" ، فقال : إليك عنى ، فإنما أتيتُ من قبلك . . ، فخلى بينى وبين وملائكة ربى عز وجل ، فقبضوه وغسلوه وكفنوه وحنطوه ، وحفروا له ولحدوه ، وصلوا عليه ، ثم دخلوا قبره فوضعوه فى قبره ، ثم حثوا عليه ، ثم قالوا : يا بنى "آدم" هذه سنتكم) .

وأيضا تكثر الروايات ـ وتختلف ـ فى موضع دفنه ، والمشهور ـ كما يقول "ابن كثير" ـ رحمه الله ـ أنه دفن عند الجبل الذى أهبط فيه فى الهند .

وقيل بجبل "أبى قُبيْس" بـ "مكة" ويُقال "إن نوحا ـ عليه السلام ـ لما كان زمن الطوفان حمله هَو و"حواء" فى تابوت فدفنهما فى "بيْت

المقـدس" . رأسـه عـند مسـجد "إبـراهيم" ورجـلاه عـند صخرة "بيت المقدس" .

ولـم تطـل الحـياة "بحواء" بعد وفاة "آدم" ـ عليه السلامـ إذ ماتت بعده بعام واحد ، على أشهر الروايات .

وَوَرِث النـبوة بعـد "آدم" ولـده "شيث" ـ عليه السلامـ بنص الحديث عـن رسـول الله ﷺ ، كما روى ذلك ابن "حبان" فى صحيحه ، وقد تلقى خمسين صحيفة فيها الآيات والأحكام .

"والغة"[1]

- ❖ زوجة "نوح" ـ عليه السلام ـ
- ❖ ولغت عن الإيمان في الكفر واستغرقت . . !
- ❖ وخانت دعوة زوجها ؛ وخالفت !!
- ❖ فكانت مثلا للكافرين . . ،
- ❖ فأغرقت في الطوفان! ثم أدخلت نار الجحيم ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾(نوح : ٢٥).

يقول الله تعالى في سورة التحريم ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ (التحريم : ١٠).

مرت عقود وقرون بين "آدم" و"نوح" ـعليهما السلامـ كانت البشرية فيها على منهج الله تعالى في التوحيد وعمارة الأرض والقيام بحق الطاعة والعبادة.

---

(١) هكذا جاء إسمها في بعض الروايات الإسرائيلية ، ونحن لا نثبت ذلك ولا ننفيه ، فالله تعالى أعلم وأحكم .

ثـم ظهـر فـى قـوم "نوح" ـ عليه السلام ـ (بنى راسب) (١). أشخاص كـانوا نمـاذج علـيا وأمـثلة يحـتذى بهـا فى التدين والتواصل مع الله تعالى ، فأحـبوهم واقـتدوا بهم وسلكوا مسلكهم واتخذوهم قدوة فلما حان حينهم وأزف موعـد رحيـلهم عـن الدنيا ، واختارهم الله تعالى إلى جواره ، حزن القـوم علـيهم غايـة الحـزن وأسـفوا لفراقهم ، وحرصوا على بقاء ذكرهم فيهم.

وهـنا . . بـين الحـب والحـزن كـان مدخـل "إبلـيس" إلى نفوسـهـم ، فوسـوس لهـم أن يـتخذوا لهـؤلاء الأحـبة نصبا وتماثيل كى لا يغيبوا عن أعينهم وأنظارهم ، ويظلوا فى وجداناتهم أحياء غير أموات !!

ففعلـوا ا ونحـتوا . . . ، وظهـرت لأول مرة فى تاريخ البشرية والإنسانية التماثيل . . !

تمـاثـيل "ود" و "سـواع" و "يغـوث" و "يعوق" و "نسر" ، على أسماء أولـئك الصـالحين ! وأقاموهـا فـى الأمـاكن الـتى كـان يجلس فيها أولئك الصالحون.

وظلـوا عـلى ذلـك ردْحـاً من الزمن !! فى تقديس وتعظيم لـم يبلغا إلى حـد العـبادة . . ثـم إن "إبلـيس" اتخـذ مـن هـوس هذا الحب مدخلاً إلى الـنفوس فوسـوس لهـم أن يجعلـوا نمـاذج لهـذه التماثـيل فـى بـيوتهم ، فأطـاعوه . . ، فكـانوا أوّل مـن كفر وأشرك وعبد الطاغوت ، وتمادوا فى ذلك وأمعنوا .

فـلما انتشـر الفساد وعم البلاء بعبادة الأصنام ، بعث الله عبده ورسوله "نوحـاً" ـ علـيه السـلام ـ يدعـو قومـه إلى عـبادة الله وحده لا شريك له ،

---

(١) هكذا سماهم المؤرخون

وينهى عن عبادة الأصنام والتماثيل والطواغيت . . ! وينذرهم بعذاب الله في الدنيا والآخرة إن هم أصروا واستكبروا .

قال تعالى ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (نوح ١ ـ ٤) .

لبث " نوح " ـ عليه السلام ـ في قومه يدعوهم إلى الهُدى ألف سنة إلا خمسين عاماً . . !!

ما أطولها مدة . . !! وما أقساها قلوب !!؟؟ وما أصبره عليهم !!؟؟

ما ترك ـ عليه السلام ـ من حجة إلا قالها ، وماترك من وسيلة إلا اتبعها ، سراً وعلانية ليلاً ونهاراً ولكنهم كانوا في نَجْوةٍ عن الإيمان وفرار من الحق ، وبعد عن الهدى . . !

إتبعه نفر قليل من المستضعفين الفقراء ، وخاصمه الكبراء والأغنياء وذوي السلطان . . ؛ وكان هؤلاء يزدادون ويكثرون ويزْدادُونَ طغيانا وإثماً ونفوراً !

يقول " نوح " ـ عليه السلام ـ : ﴿رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠

يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ ﴾(نوح : ٥-٢٠)

هزأوا به وبدعوته ، وسخروا منه وممن اتبعه . . واتهموه بالكذب والافتراء وقالوا : ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾(هود: ٢٧)وتنادوا بينهم : ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ ﴾ (نوح :٢٣)

وكانت زوجته ـ والغة ـ عينا عليه لقومها . . . !

ويبدو أنها كانت من فئة الأغنياء وشريحة أصحاب السلطان والنفوذ . . ، وقد تزوجها قبل أن يختاره الله تعالى رسولاً ونبياً ولدت منه أولاده "ياما" و"حاماً" و"يافثاً" وابنة قيل اسمها : "عابر"[1].

فلما حُمِّل ـ عليه السلام ـ أمانة الرسالة جَنَحَتْ ـ والغة ـ إلى الفئة الضالة ، فكانت في بيْته ترقب كل ما يجدّ، ثم تنقل ذلك إلى قومها ، فيعرفون لها صنيعها ! وتلكَ هي الخيانة وأي خيانة أعظم من إفشاء أسرار البيوت !!؟؟

بل أي خيانة أعظم وأكبر من الحيدة عن الحق والهدى إلى الباطل والضلال !!؟

واستمرت على ذلك فزادها الله تعالى ضلالاً وأغفل قلبها عن ذكره باتباع هواها .

---

(١) يقال إنها ماتت قبل الطوفان.

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾(الصافات: ٧٥)
﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ١١٧-١١٨)
﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ (القمر: ١٠)
﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (نوح: ٢٦-٢٧)

بعد أن قام "نوح" - عليه السلام - بأعباء الرسالة خير قيام، ودعا قومه إلى الهدى والحق، وصبر عليهم رحمة بهم، وأوذى فتحمل..!

ولما لم يجد منهم قلوبا واعية وآذاناً صاغية، وأنَّه كلما دعاهم ازدادوا جموحاً ونفوراً، وأنهم إنْ تركوا من غير عقاب ثم تناسلوا لم يلدوا إلا ذرية أسوأ منهم وأشد نكراناً وكفوراً!

عندئذ دعا ربه، أن يفتح بينه وبين القوم الظالمين، وأن يمحو أثرهم ويطهر[1] الأرض من جسهم؛ فاستجاب له ربه، وأوحى إليه بصنع سفينة تكون له ولمن أتبعهُ وسيلة النجاة..!

النجاة من طوفان يعم الأرض كلها..!

السماء تمطر بغزارة...، والأنهار تتدفق...، والينابيع تتفجر...، والبحار تموج بموج كالجبال..! أما السفينة التى تحمله - عليه السلام -

(١) لم يكن الطوفان إلا تطهيراً للأرض كلها من رجس الشرك ونجاسة الكفر ودرن الوثنية؛ كما يتطهر الإنسان - المسلم - من خبث الحدثين.

ومن معه من المؤمنين وقد حشر فيها من الحيوانات والطيور من كل زوجين أثنين ، فإنها سيكون ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾
(هود: ٤١)

وبدأ "نوح" ـ عليه السلام ـ بصنع السفينة ، وقد أُرشد إلى ذلك . . ! زرع الأشجار . . ، وعندما نضجت وبسقت قطعها ثم جففها . . ، ونشرها ألواحا . . ثم بدأ بجمعها، وكانت امرأته ـ والغة ـ، تسخر من صنعه، وتظنه قد تم جنوناً . . ،

وكذلك قومه المعاندون المكابرون ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ (هود: ٣٨)

فيقول لهم : ﴿ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ (هود: ٣٨-٣٩)

فلما فار التنور بالماء من أسفله ، وانطفاءت ناره . . ، كانت علامة بدء الطوفان . . !

وكانت حبال المطر تهطل ولا تنقطع ، والأرض تتفجر عيوناً وينابيع ، والماء لا يتسرب إلى باطن الأرض بل يعلو ويعلو . . ويغطّي ويطغى . . !

عندها دخل "نوح" ـ عليه السلام ـ ومن معه من المؤمنين القلائل وبعض أهله ولديه "حام" و"يافث" وكنائنه السفينة ، ، وقد حشر فيها من الحيوان والطير من كل زوجين اثنين .

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ (المؤمنون: ٢٧)

وكانت "والغة" امرأته ممن سبق عليه القول . . !

أبت أن تدخل السفينة، وآثرت البقاء مع قومها الذين أغرقوا فأدخلوا ناراً ! ! وكذلك ولده "يام" الذى ظن أنه ناج إذ اعتلى جبلاً . . !

ولقد حن إليه "نوح" ـ عليه السلام ـ ودعاه إليه فقال : ﴿ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾(هود: ٤٢) لكن الولد غرته نفسه وأغواه شيطانه فقال ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ (هود: ٤٣).

وظلت السفينة ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ ﴾ (هود: ٤٢) أياماً وليالى . . ودعا "نوح" ـ عليه السلام ـ ربه فقال : ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ (المؤمنون: ٢٩) فاستجاب له . . ﴿وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾(هود: ٤٤)

إنحبس ماء السماء، وغاص ماء الأرض فى شرايينها إلى جوفها ؛ واستقرت السفينة على قمة جبل الجودى[1] . . ،

ثم هبط "نوح" ـ عليه السلام ـ ومن معه . . ، وأخذت الحياة دورة جديدة . ؛ وبدأت رحلة البشرية الثانية .

---

(١) أكثر الروايات وأشهرها أنها سلسلة جبال "أرارات" فى آسيا الصغرى (تركيا).

"سارَّة" ـ عليها السلام ـ

❖ زوجة النبى "إبراهيم ـ الخليل ـ عليه السلام ـ
❖ وأم الأنبياء . .
❖ أم "إسحاق" . . و"يعقوب" والأسباط !
❖ جذر أصيل ، وفرعها ظليل . . . ، حتى "عيسى" ـ عليه السلام ـ!

"سارَّة" بتشديد الراء [1] ، تسر القلب لنقاء عقيدتها وصفاء إيمانها ، وتسر العين لجمالها وحسنها وبهائها ؛ فقد كانَت على غير دين قومها ، راغبة عن كواكبهم السبعة التى كانوا يعبدون ، ترنو ببصيرتها إلى الذى فطرهُنّ ، وتأتلق أنوثة وروعة فى وسط له مقاليد السلطان والحكم والنفوذ.

كانت إبنة عم لـ "إبراهيم" ـ عليه السلام ـ فأبوها "هاران" أخو "تارخ" [2] والد "إبراهيم" . . ! ويقال بأن والدها "هاران" كان ملكا على "حران" من أرض "بابل" .

---

(١) هذه هو الأشهر فى إسمها.
(٢) أكثر المفسرين والمؤرخين على أن كلمة "آزر" فى قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ (الأنعام: ٧٤) إنما هى لقب أو صفة وليست إسماً.

وقبل الخوض فى الحديث عن "سارة" لابد من الحديث عن "إبراهيم" الخليل ـ عليه السلام ـ فهو الأصل وهى الفرع، وهو النبى وهى زوجته . . !

فمنذ نضوجه ـ عليه السلام ـ فى صباه أدرك جنوح قومه عن الحق والحقيقة، بتوفيق وتدبير وتقدير من الله تعالى، وآختياره له ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٥١)

كان القوم قد مثلوا لما يعبدون من دون الله الكواكب : أصناماً وأوثاناً، يعكفون عليها ويقدسونها، ويقدمون لها القرابين والنذور.

وكان أول ما هداه الله إليه أن ربط بين قلبه وعقله فى النظر إلى الكون والتأمل فيه ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام : ٧٥ـ٧٩)

تلك كانت البداية ونقطة الانطلاق.

وبدأت معركة "إبراهيم" ـ عليه السلام ـ مع الشرك والمشركين، بالقول والفعل:

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ

كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾

(الأنبياء : ٥٢-٥٦).

ومن ثم تحرك من القول إلى الفعل :

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ فَجَعَلَهُمْ ﴿٥٧﴾ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ (الأنبياء : ٥٧ ـ ٦٠).

ودخل "إبراهيم" ـ عليه السلام ـ في جو المحنة والابتلاء . . ! إذ صمم القوم على محاكمته ثم الانتقام منه بحرقه في النار، وأجمعوا كيدهم . . ﴿قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوٓاْ ﴿٦١﴾ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ (الأنبياء ٦١ ـ ٧٠) .

إنتصرت إرادة الله تعالى وخسر هنالك المبطلون . . . ، وخرج " إبراهيم " ـ عليه السلام ـ من هذه المحنة سليماً معافى ، لم يضره مكرهم ولا كيدهم ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ (الصافات : ٩٨) .

وعلى الرغم من بلوج الحق أمام أعين الضالين إلا أنهم ظلوا فى عنادهم وعتوهم وغرورهم . . !

وابتُلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ بملك جبار متكبر تخطى ما عليه القوم من كفر وشرك إلى آدعاء الألوهية . . ! هو " النمرود " ملك " بابل "

فأتاه " إبراهيم " ـ عليه السلام ـ يدعوه إلى عبادة الله وحده ، الذى يحيى ويميت وبيده مقاليد كل شئ ، وإليه المصير . . . ، فسخر منه " النمرود " وقال : أنا أحيى وأميت . . !

ثم أحضر من السجن رجلين قد حكم عليهما بالقتل ، فعفا عن أحدهما ، وقتل الآخر . . . ، لكن هذه الحجة الواهية لم تعجز " إبراهيم " ، وإن جازت على من حضر هذه المناظرة . . . ، إذ قال " إبراهيم " ـ عليه السلام ـ لهذا الجبار من غير تردد ولا تلكُؤ : ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة : ٢٥٨) عندئذ سقطت الدعوى ، وأُلجم لسان " النمرود " ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (البقرة : ٢٥٨) . ، وانفض المجلس . . ! وظل " النمرود " يعمه فى طغيانه .

لا الملك ـ السلطان ـ [1]؟ . ، ولا الناس ـ الشعب ـ أصغوا بقلوبهم وعقولهم إلى الحق واتباع الهدى ! فآثر "إبراهيم" ـ عليه السلام ـ أن يهاجرهم ويهجرهم ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (العنكبوت : ٢٦) .

فخرج من تلك الديار ومعه زوجته "سارة" وابن أخيه "لوط" ـ عليه السلام ـ ومع "لوط" زوجته[2] . . ؛ واتجهوا إلى الشام (فلسطين) ﴿إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ﴾ (الأنبياء : ٧١) .

وكان مع "إبراهيم" أيضا أخوه "ناحور" وزوجته "ملكا" ؛ فكانوا طليعة الإيمان والتوحيد إلى بلاد "الشام" .

وحطوا الرحال عند "بيت المقدس" . . ، وهناك أوحى الله تعالى إليه : إنى جاعل هذه الأرض لك ولخلفك من بعدك ، فابتنى ـ عليه السلام ـ معبداً لله تعالى شكراً على هذه النعمة ، كما أقام قبة له ولأهله .

ومن "بيت المقدس" قصد إلى "التيمن" ، وهى "حبرون" [3]؟ ، وكانت قرية صغيرة جنوبى "بيت المقدس" ، فأقام فيها . . ! .

ومرت على البلاد و العباد أيام ضنك و شدة ؟ . . . ! قحط وجدب . . ، فقصد "إبراهيم" ـ عليه السلام ـ ومعه "سارة" إلى "مصر" يطلبان الميرة ؛ فلما أتياها مرا بأرض ملك من الجبابرة [4] ، فأخبر هذا الملك بما عليه "سارة" من الجمال والبهاء ، فتاقت نفسه إلى اغتصابها

---

(١) هلك "النمرود" بعد ذلك شر هلكة .

(٢) سيأتى الحديث عنها فى حينه .

(٣) المعروفة اليوم بمدينة "الخليل" ـ عليه السلام ـ

(٤) قيل إسمه "سنان بن علوان" وقيل "عمرو بن امرئ القيس"

. . ، فآستدعى إبراهيم وسأله عنها . . ، فقال : هى أختى . . ! ولما رجع إلـيها "إبـراهيم" قـال لها : إن هذا سألنى عنك فقلت إنك أختى ، وليس اليوم مسلم[١] غيرى وغيرك وأنك أختى فلا تكذبينى عنده .

و "حملـت" سـارة" إلى الملك . . ، فلما دخلت عليه اشتد افتتانُهُ بها ، وأقـبل يريد أخذها ، فأقبلت تتوضأ وتصلى وتقول : اللهم إن كنت تعلم أنى قد آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى ، فلا تسلط على الكافر . . ! .

فأُخذ الملك ، وغط . . ، وسقط مغشياً عليه ، كأنه ميت . . ، فخافت "سارة" وقالت : إن يمت يقال هى قتلته . . ! فأُرسل .

فقـام إلـيها ثانـية يـريـــدها ، ففعـــلـت كالمرة الأولى . . . ، وكذلك ثالـثة[٢]؟ . فأقلع عنها وقد انتابه الخوف والذعر ، ثم دعا رجلاً من حاشيته وقـال لـه : إنـك لم تأتينـى بإنسـان ولكـن أتيتنـى بشيطان أخرجها من بين يدى . . ! وأعطها "هاجر" . . !

فعـادت "سـارة" إلى "إبـراهيم" ـ عليه السلام ـ وكان قائما يصلى ، فلمـا أحـس بهـا انصـرف وسـألها : مهيم!؟[٣]؟ فقالت : كفى الله كيد الظالم . . وأخدمنى "هاجر" !!

وأضـحت "هاجـر" ـ القبطية المصرية ـ مولاةً لـ "سارة" . . ! وكانت مـن قـبل "جاريـة" فـى قصـر الملـك الفرعونـى . وكانـت ذات حسـب ونسـب ، إذ لم يكونـوا ـ أى الفراعنة ـ ليؤوا فى قصورهم من الجوارى إلا ذوات الأصول .

---

(١) وفى رواية : "مؤمن" بدلاً من "مسلم"

(٢) رواه "البخارى" و "أحمد" .

(٣) أى : ما وراؤك من الخبر ؟

ثـم إن " إبـراهيم " ــ عليه السلام ـ ارتحل من " مصر " بأهله عائداً إلى أرض " التـيمن " ــ حـبرون ـ ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل ، قد اكتسبه كل ذلك فى رحلته إلى " مصر " . ،

فاسـتقبله أهل البلاد بالتكريم والتعظيم ، وإعلان الطاعة والولاء ، ثم إن ابـن أخـيه لـوطاً ـ علـيه السـلام ـ آستأذنه بالنـزوح عـنه إلى أرض " الغـور "[1] ـ حـيث مدينة " سدوم " . أُمّ تلك البلاد حينئذ ـ ، فأذن له ، فخرج " لوط " ـ عليه السلام ـ بأهله وحاشيته وأمواله . . ، حتى إذا ما دنا مـــن مقصــــده وهدفـــه هاجمـــه الجبابـــرة مـــن أهلـــها و أسروه واستولوا على ماكان معه من أموال وأنعام . . !

وبلـغ الخـبر " إبـراهيم " ــ عليه السلام ـ فسار إليهم فى ثلاثمائة وثمانية عشـر رجـلاً مـن أصـحابه وأتـباعه ، فأسـتنقذ " لـوطا " ــ علـيه السلام ـ واسـترجع أمواله ، وقتل من اعداء الله ورسوله خلقاً كثيراً ، وتتبع فلولهم حتى بلغ شمالى " دمشق " وعسكر بظاهرها عند قرية " برزة " .

ثـم رجـع إلى بـلاده مـؤيداً منصوراً ، فتلقاه أهلها وعظماؤها بالتكريم والتعظـيم والخضـوع لسـلطانه ، كمـا رجـع " لـوط " ـ عليه السلام ـ إلى " سدوم " حيث أقام واستوطن وكان قد أُوحى إليه بالرسالة والنبوَّة .

وهـنا ، عزيـزى القارئ تتداخل حياة زوجات " إبراهيم " و " لوط " ـ عليهما السلام ـ ، " سارة و " هاجر " و " والهة " . . !

وهذا التداخل من حيث المعاصره الزمنية ، والتواصل الاجتماعى .

فـبعد عودة " إبراهيم " و " سارة " من مصر . . ، واستقرار " لوط " فى أرض " سـدوم " . . ؛ وكـان قد مر على " إبراهيم " ثمانية عقود من عمره

---

(١) المعروف :بـ " اغَوْرزغر "

ولـم يـنجب ولـداً . . ، قالت له "سارة" : إن الله تعالى قد حرمنى الولد ، فآدخل على أمتى هذه ـ "هاجر" ـ لعل الله يرزقنا منها ولداً . . !

رغـبة مـنها فى إرضائه واشباعاً لغريزة الأمومة عندها [١] ، وكان ذلك تنازلاً منها عن حق الولاء .

فلمـا دخل "إبراهيم" ـ عليه السلام ـ بـ "هاجر" حملت ، ثم وضعت طفـلاً أسمـاه والـده "إسماعـيل" ؛ وكـان "إبراهيم" ـ عليه السلام ـ فى السادسة والثمانين من عمره ؛

أحـب الـولدَ والأم ، ومال إليهما . . ، فتفاعلت غريزة الغيرة الأنثوية فـى نفس "سارة" ، ثم اشتدت فطلبت من "إبراهيم" أن يغيِّب "هاجر" وولـدها عـن ناظريها ، فحملهما إلى بريَّة "فاران" ـ الحجاز ـ ، وأسكنهما وادى "بكـة" ـ مكـة ـ ؛ وكانـت أرضـاً قاحلة لا ماء فيها ولا ضرع ولا زرع . . !

أمـا "سـارة" فـإن عوامل الغيرة قد حركَتْ فى كيانها الأنثوى بواعث الحمـل . . ، فـبعد مـرور ثلاثـة عشـر عاماً على مولد "إسماعيل" ـ عليه السـلام ـ جـاءت البشـرى من الله تعالى لـ "إبراهيم" بـ "إسحاق" ـ عليه السـلام ـ ؛ وكان "إبراهيم" ـ عليه السلام ـ فى العقد العاشر ، و"سارة" فى العقـد التاسـع . . ! ولقـد كانـت البشـرى مـن الله تعـالى علـى لسـان ملائكته : "جبريل" و "ميكائيل" و "واسرافيل" . . . !

---

(١) استناداً إلى قولها : (يرزقنا) .

"والهة"

- كما ولغت امرأة " نوح " فى الكفر . . !
- ولهت امرأة لوط فى الشرك وسوء الخلق وفساد السريرة
- خانـت امـرأة " نـوح " ـ والغـة ـ نبى الله ورسوله إذ ضلعت مع قومها فى وثنيتهم ، وأفشت سره .
- كذلك خانت " والهة " نبى الله " لوطاً " ـ عليه السلام ـ بالتواطؤ مـع أسـفل الخلق خلقاً ، ورضيت معهم بالدون ، وحنت إليهم حين أخذتهم الصيحة ، فكانت من الهالكين ومثلاً للكافرين .

عـاد " لـوط " ـ عليه السلام ـ بعد خلاصه من أسره إلى أرض " سدوم " الـتى اخـتارها وطناً له ، لكن بقية أهلها كانوا فى ضلال مبين، كانوا أسوأ الـناس خلقـاً، يأتون الفاحشة ما سبقهم بها من أحد من العالمين ، إذ كانوا يـأتون الذكـران ويـذرون الإنـاث . . . علانـية جهاراً . . فى ناديهم . . . ، ويـتحللون مـن لباسهم . . . ، ويبدون عوراتهم وسوآتهم . . . ، ويتفاخرون بذلـك ، دونمـا رادع ولا وازع ؛ فكانوا أول نادى عراة فى تاريخ الإنسانية والبشرية !!

وحاول "لوط" ـ عليه السلام ـ هدايتهم وردعهم عما يفعلون وينذرهم بأس الله الذى لا يرد عن القوم المجرمين .

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾

(العنكبوت : ٢٨ ـ ٢٩) .

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ (الشعراء : ١٦٠ ـ ١٦٦ فبماذا أجابو دعوته . . ؟

و﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ (العنكبوت : ٢٩)

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾

(الشعراء : ١٦٧) .

إزاء تعنتهم وتنكرهم واستغراقهم فى ضلالتهم كان لا بدَّ من عقابهم والاقتصاص منهم . . ! وأى عقاب !!!

فقد أرسل الله تعالى ملائكته : " جبريل " و " ميكائيل " و " إسرافيل "[1]؟
ـ عليهم السلام ـ ليوقعوا بقوم "لوط" ـ أهل " سدوم " ا لعذاب المهين ، ويجعلوهم عبرة للذاكرين .

فى نفس الوقت حملوا البشرى إلى إبراهيم ـ عليه السلام ـ و " سارة " بـ " إسحاق " ؛ إذ جاؤوا " إبراهيم " على هيئة الضيفان . . !

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ (هود : ٦٩ ـ ٧٣)

قال " السدى " :

(وخرجت الملائكة من عند " إبراهيم " نحو قوم "لوط " ، فأتوها نصف النهار ، فلما بلغوا نهر "سدوم" لقوا ابنة "لوط" تستقى منه الماء لأهلها ؛ وكانت له ابنتان ، إسم الكبرى "ريثا" والصغرى " ذ غرتا " ، فقالوا لها : يا جارية هل من منزل ؟ فقالت لهم : نعم . . ! ، مكانكم . . لا تدخلوا حتى آتيكم ، خوفا عليهم من قومها ، فأتت أباها فقالت : أبتاه . . أرادك فتيان على باب المدينة ، ما رأيت وجوه قوم قط هى أحسن

---

(١) كان يكفى ملك واحد ولكن الله تعالى أراد من العدد مبلغ ما كان عليه القوم من السوء والفساد ! !

منهم ، لايأخذهم قومك فيفضحوهم . . ! وقد كان قومه نهوه أن يضيف رجلاً فقالوا : خل عنا فلنضيف الرجال.

فجاء بهم ، فلم يعلم أحد إلا أهل البيت ، فخرجت أمراته فأخبرت قومها فقالت : إن فى بيت "لوط" رجالاً ما رأيت مثل وجوههم قط ، فجاءهُ قومه يهرعون إليه)

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ (هود: ٧٧ ـ ٧٨).

جاء قومه إلى بيته يريدون آقتحام الدار ، وهو ـ عليه السلام ـ من وراء الباب يدافعهم وينصحهم ويذكرهم بزوجاتهم ونسائهم ويعرض عليهم بناته ـ فالنبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم ! !

حتى حينه . . لم يكن "لوط" ـ عليه السلام ـ يعرف حقيقة ذوات ضيفاته ، وأنهم من الملائكة . . ، فاستغاث ربه سبحانه وتعالى فقال : ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود: ٨٠) عندئذ أفصح الملائكة عن أمرهم فقالوا : ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ ثم قالوا : ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾(هود: ٨١).

أعلنوه بالعذاب الذى سيقع بالقوم، وأمروه أن يخرج بأهله وبناته من الدار . . ومن المدينة بالكليَّة. . ، وأخبروه أن عذاب الله تعالى سيكون فى عماية الصبح . . ! فلا يلتفت أحد منكم إلى الوراء . . ! ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾.

إلا "والهة" التى كانت من الضالين الفاسدين، والتى خانت أمانة النبوة . . ، والتى سبق عليها القول ، فإنه واقع بها عذاب الهون فى الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد!!!

وخرج "لوط" ـ عليه السلام ـ من باب خلفىٍّ فى الدار ، ومعه بناته. . كذلك أمراته "والهة" . . ، حتى إذا ما آبتعدوا أ وقعت الواقعة بالديار وأهلها . . !

إقتلعها "جبريل" ـ عليه السلام ـ بطرف جناحه وكانت سبع مدن ـ بمن فيهن من الأمم والحيوانات ، فرفعها حتى بلغ بها عنان السماء (1)؟ ، ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها .

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ(2) ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾(هود: ٨٢ـ٨٣).

وآنصياعاً لأمر الله تعالى لم يتلفت "لوط" وبناته إلى الوراء . . ، إلا آمرأته "والهة" . . !

فإنها لما سمعت صوت الزلزلة والرجفة ـ وكانت غير مصدقة ـ لا من قبل ولا من بعد ـ التفتت وصرخت : واقوماه . . ! فسقط عليها حجر فدَمغها . . وألحقها بقومها . . ! فكانت من الهالكين

﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾
(الذاريات : ٣٧) .

---

(١) يقال إن الملائكة فى السماء سمعت أصوات الديكة ونباح الكلاب .
(٢) السجيل : فارسىّ مُعَرَّب ، وهو : الشديد الصلب القوى ، ومنضود: يتبع بعضه بعضا فى نزوله .

إذ جعل الله تعالى مكان تلك البلاد بحيرة منتنة [1]، لا ينتفع بمائها ، ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لها ، لرداءتها ، ودناءتها ، فصارت عبرة وعظةً ومثلةً ، وآية على قدرة الله تعالى وعظمته وعزته في انتقامه ممن خالف أمره ، وكذَّب رسله ، واتبع هواه ـ وعصى مولاه . . . ، ودليلاً على رحمته بعباده المؤمنين في إنجائهم المهلكات ، وإخراجه إياهم من الظلمات إلى النور ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الشعراء ١٧٤ ـ ١٧٥) .

---

(١) تعرف اليوم بـ" البحر الميت " بين الأردن وفلسطين .

"هاجر" ـ عليها السلام ـ

- كان لها من اسمها نصيب . . ، وأى نصيب ! !
- هاجرت من "مصر" إلى " فلسطين" جارية " . . !
- ثم هاجرت البكورية والعذرية للتسرى !
- فكانت سِرِّية لأبى الأنبياء "إبراهيم الخليل" ـ عليه السلام ـ
- ثم هاجرت من فلسطين " إلى برية " فاران " . . ومعها ولدها الرضيع "إسماعيل" ـ عليه السلام ـ
- هجرت دنيا الناس والبشر . . فاحتضنتها يد العناية الربانية . . !

ونعود إلى " هاجر " ـ عليها السلام ـ . . !

لقد ذهب بها وبولدها زوجها "إبراهيم" ـ عليه السلام ـ بعيداً عن عينى "سارة" . . ، إنطلق بهما إلى برية "فاران" ـ الحجاز ـ ،

ويروى لنا الإمام "البخارى" والإمام "أحمد" عن " ابن عباس " ـ رضى الله عنهما ـ قصة ذلك ـ عن رسول الله ﷺ ؟ فيقول : (ثم جاء بها "إبراهيم" وبابنها "إسماعيل" ـ وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت ، عند دوحة فوق "زمزم" فى أعلى المسجد وليس بـ"مكة" يومئذ أحد ،

ولـيس بها ماء فوضعهما هناك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه مـاء ؛ ثـم قفـى "إبـراهيم" مـنطلقاً ، فتبعـته "أم إسماعيل" فقالت : يا "إبـراهيم" أيـن تـذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به أنيس ولاشئ ؟ فقالـت لـه ذالـك مـراراً ، وجعـل لا يلتفت إليها ، فقالت : آلله ـ تعالى ـ أمرك بهذا ؟ قال : نعم . . ، قالت : إذاً لا يضيعنا ، ثم رجعت .

فآنطلـق "إبـراهيم" حتـى إذا كـان عـند الثنـيَّة حـيث لا يرونه استقبل بـوجهه البيت ، ثم دعا بهؤلاء الدعوات ، ورفع يديه فقال : ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيۡرِ ذِى زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِىٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ (إبراهيم : ٣٧) .

وجعلـت "أم إسماعـيل" : ترضـع "إسماعـيل" وتشـرب من ذلك المـاء ، حتـى إذا نفـد مـا فى السقاء عطشت وعطش ابنها ، وجعلت تنظر إليه يتلوى [١]؟ ، فآنطقت كراهية أن تنظر إليه ، فوجدت "الصفا" أقرب جـبل فـى الأرض يلـيها ، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحـداً . فلـم تر أحداً ، فهبطت من "الصفا" حتى إذا بلغت بطن الوادى رفعـت طـرف ذراعهـا ثـم سـعت سـعى الإنسـان المجهـود حتى جاوزت الـوادى ، ثـم أتـت "المروة" فقامت عليها ونظرت هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً . . ، ففعلت ذلك سبع مرات) .

قـال "ابن عباس" ـ رضى الله عنهما ـ قال : النبى ﷺ : (فذالك سعى الـناس بيـنهما) (فلمـا أشرفت على "المروة" [٢] . سمعت صوتًا فقالت :

---

(١) وفى رواية : يتلبط .

(٢) أى فى الشوط السابع .

صَـهْ ـ تـريد نفسها ـ ثم تسَمَّعت فسمعت أيضاً ، فقالت : قد أُسمعت إن كـان عـندك غـواث ، فإذا هى بالملك عند موضع "زمزم" ، فبحث بعقبيه حتى ظهـر المـاء . . ، فجعلـت تحوطـه وتقـول بيدها هكذا . . ، وجعلت تغرف الماء فى سقائها ، وهو يفور بعدما تغرف) .

قـال "ابـن عباس" ـ رضى الله عنها ـ قال : النبى ﷺ : (يرحم الله "أم إسماعيل" لو تركت "زمزم" . . لكانت "زمزم" عيْناً معيناً)[1] ؟ .

(فشـربت وأرضـعت ولدها ، فقال لها الملك : لا تخافى الضيعة ، فإن ها هنا بيتا لله ، يبْنيه هذا الغلام وأبوه ، وأن الله تعالى ـ لا يضيع أهله .

وكـان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية ، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعـن شماله ؛ فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من "جرهم" ـ أو أهل بيـت من "جرهم" ، مقبلين من طريق "كداء" ، فنزلوا فى أسفل "مكة" فـرأوا طائـراً عائفـاً ، فقـالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، لعهدنا بهذا الـوادى ومـا فـيه مـا ء . . ، فأرسـلوا جـريا[2] ـ أو جـريين فـإذا هم بالماء ، فـرجعوا وأخـبروهم بالمـاء فأقبلوا . . ! و "أم إسماعيل" عند الماء ، فقالوا أتـأذنين لـنا أن نـنزل عـندك؟ قالـت : نعـم . . ولكـن لا حق لكم فى الماء عندنا ، قالوا : نعم)

قال : "ابن عباس" ـ رضى الله عنهما ـ : قال النبى ﷺ (فألفى ذلك "أم إسماعـيل" وهـى تحـب الأنـس ، فـنزلوا وأرسـلوا إلى أهلـيهم فـنزلوا معهـم) . وشـب الغلام "إسماعيل" ـ عليه السلام ـ وتعلم اللغة العربية من "جـرهم" ، كما أتقن ركوب الخيل وبرز ، ثم تعلم بَرْيَ السهام ومهر فى ذلك مهارة فائقة .

---

(١) أى : عيناً ظاهرة للعيان على وجه الأرض . .

(٢) الجرى : الوكيل : والمقصود هنا مندوباً عنهم ليستطلع لهم الأمر .

وكان " إبراهيم " - عليه السلام - يأتى إليهم بين الحين والحين زائراً مطمئناً لأحوالهم . . . ، ثم ينصرف عائداً إلى " حبرون " .

وقبل أن تأتيه البشرى بـ " إسحاق " - عليه السلام - رأى " إبراهيم " - عليه السلام - رؤيا . . أنه يذبح ولده . . وحيده . . بكره . . ![1]؟ .

ورؤيا الأنبياء - عليهم السلام - حق ووحى . . . ، فلا بد من التنفيذ . . . ، فأتى " إبراهيم " - عليه السلام ، وادى مكة زائراً كما كان يفعل من قبل ؛ ثم عرض ذلك على ولده ليكون أطيب لقلبه وأهون عليه من أن يأخذه قسراً ويذبحه قهراً ﴿قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ (الصافات : ١٠٢) .

خَيِّرَةٌ فى الطاعة والاستجابة ..!

ولم يكن الولد المهيأ للنبوة والرسالة فى علم الله تعالى وتقديره ليرفض أو يعترض . . ، فقال : ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ (الصافات : ١٠٢) وهذا الجواب فى غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد .

وخرج " إبراهيم " بـ " إسماعيل " بعيداً عن أعين " هاجر " ، فلما كان بـ " منى " ، أضجعه والده إلى الأرض ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ . . .. ﴾ وقد ﴿أَسْلَمَا . .. . ﴾ استسلما لأمر الله . . ، كبرَّ " إبراهيم " وتشهد " إسماعيل " . . ، وتناول " إبراهيم " الشفرة ليمرها على رقبة " إسماعيل " نودى من قبل الله تعالى : ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ (الصافات : ١٠٤ - ١٠٦) .

---

(١) نصت " التوراة " على ذلك فلا خلاف .

كُـفَّ عـن هـذا وتوقف ، فقد حصل المقصود من اختبارك وطاعتك ، ومبادرتك إلى أمـر ربك . . ، لقد بذلت ولدك للقربان ، كما سمحت من قبل ببدنك للنيران ، وكنت أباً للضيفان ، فهذا هو البلاء المبين والاختبار العظيم .

ولـيس "إسماعـيل"[1] أقـل طاعـة منك ، حين قبل التضحية امتثالاً لأمر الله تعالى . . !

فكلاكما آستحق الفداء ﴿وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (الصافات : ١٠٧) ، فإذا بكبش أعين أقرن قـد سيق إليهما ، فذبحه "إبراهيم" ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْـَٔاخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١١٠ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الصافات ١٠٨ ـ ١١١) .

وعـاد إبراهـيم إلى : حـبرون" فـى "فلسطين" . . ، وتلقى البشـرى بـ"إسـحاق" ـ عليه السلام ـ فخر ساجداً لله تعالى شـاكراً حامـداً ﴿وَبَشَّرْنَـٰهُ بِإِسْحَـٰقَ نَبِيًّا[2] مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝١١٢ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَـٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾ (الصافات : ١١٢ـ١١٣) .

وبعـد أن تم الحمـل لـ"سـارة" بـ"إسـحاق" ـ عليه السلام ـ ووضـعته . . وشب غلاماً . . ، اختـارها الله تعالى إلى جـواره ، فحـزن

---

(١) إسماعيل : إسم مركب يعنى : سمع الله دعائى وكذلك "إسرائيل" ، الذى يعنى : عبدالله .

(٢) الملاحظ فى البشرى بإسحاق أنه مولود ذكر من "سارة" ونبى أيضاً . . ! ومن وراء إسحاق "يعقوب" كذلك ـ عليهما السلام ـ .

"إبـراهيم" لفـراقها حـزناً شديداً ، ورثاها ، واشترى من رجل من بنى : حيث" إسمه "عفرون بن صخر" مغارة بأربع مائة مثقال ، ودفنها فيها .

أمـا "هاجـر" فقد ماتت فى "مكة" ، ولم يحضر "إبراهيم" وفاتها ، وقـام ولـدها "إسماعـيل" بدفنها [١]، وحزن عليها أشد الحزن ، إذ كانت سلواه وأنيسته .

---

(٢) قيل عند "الحِجْر"

"قنطورا" و"حجون"[1] "..١..

❖ إسمان لزوجتين بنى بهما "إبراهيم" الخليل" ؛ عليه السلام . بعد "سارة" و "هاجر"

❖ تزوجهما وقد تجاوز العقد الثانى عشر من عمره .

❖ وقد أنجبتا كثيراً من الذرية . . !

❖ ومن نسل الأولى "قنطورا" كان بنو "مدين"

قوم نبى الله شعيب " ـ عليه السلام ـ

" قنطورا " ابنة "يقطن" ـ الكنعانية . . !

تزوّجها "الخليل ـ عليه السلام ـ بعد وفاة "سارة" و "هاجر" . . !

فأنجبت منه ستة من البنين هم : "مديان" و"زمران" و"سرج" و"يقشان" و"نشق" ذكر ذلك "أبو القاسم السهيلى" فى كتابه : "التعريف والإعلام" ـ ولم يسم السادس من الأبناء .

---

(١) أما "الحَجون" بفتح الحاء فهى مقبرة أهل مكة " .

ومن الأول "مديان" : ولد "مدين" الذي هو رأس القوم الذين أرسل إليهم "شعيب" ـ عليه السلام ـ ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ (الأعراف: ٨٥).

فهل كان "شعيب" منهم، ومن صلبهم؟ أم لهُ نسب يتصل بهم؟

اختلف في ذلك كثيراً

قال "ابن كثير" ـ رحمه الله ـ[1] : (كان أهل مدين "قوما عرباً يسكنون مدينتهم "مدين" التي هى قريبة من أرض "معان" من أطراف الشام، مما يلى ناحية الحجاز، قريبا من بحيرة "لوط"، وكانوا بعدهم بمدة قريبة.

و"مدين" قبيلة عرفت بهم، وهم من بنى "مديان" ابن "إبراهيم الخليل" و "شعيب" نبيهم هو ابن "ميكيل بن يشجن" ـ ذكره "ابن إسحاق"، قال: ويقال له بالسريانية : "يثرون"، ـ وفى هذا نظر.

ويقال : "شعيب بن يشخر بن لا وى بن يعقوب".

ويقال : "شعيب بن عيفا بن مدين (مديان) بن إبراهيم.

ويقال : "شعيب بن ضيفور بن عيفا بن ثابت بن مدين (مديان) بن إبراهيم".

وقيل غير ذلك فى نسبه.

وقال "ابن عساكر" : ويقال جدته ـ ويقال أمه ـ بنت "لوط" ـ عليه السلام ـ.

وعن "وهب بن منبه" أنه قال : "شعيب" و"ملغم" ممن آمن بـ "إبراهيم" يوم أحرق بالنار، وهاجر معه

---

(١) قصص الأنبياء لـ "ابن كثير" ـ فى البداية والنهاية.

إلى الشـام ، فـزوجهما ابنتى "لوط" [1]ـ عليه السلام ـ ذكره " ابن قُتيْبة " وفى هذا كله نظر أيضا ـ والله أعلم ـ) أ. هـ .

وذكر أبو القاسم السهيلى " فى كتابه ـ أيضا ـ أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ تـزوج بعـد " قـنطورا " بـ " حجون بنت أمين " فولدت له : " كيسان " و " سورج " و " أميم " و " لوطان " و " نافس " .

فهـل تـزوج مـن " حجـون " بعـد مـوت " قـنطورا " أم أنه تزوجها فى حياتها ؟

ويظل السؤال معلقا .

ولـيس أحـد من أولاد " إبراهيم " من " حجون بنت أمين " منْ لَهُ ذرية أو سـلالة ؛ أو ذكر سوى هذه الأسماء . . . ، وكلها مرويات إسرائيلية عن " كعـب الأحبار " أو " وهب بن منبه " أو غيرهما ، ممن دسوا هذه الأخبار علـى الـناس ، فـذهب بعض العلماء والمؤرخين إلى الأخذ بها والتسليم ، وذهب الأكثرون إلى ردها .

---

(١) ريتا " و " زهزنا " .

"عمارة بنت سعد" ـ ابن أمامة بن أكيل العماليقى ـ و"السيدة بنت مضاض" بنت عمرو الجرهمى ـ.

❖ زوجتى " إسماعيل " ـ عليه السلام ـ

❖ أما الأولى ففارقها بأمر أبيه " إبراهيم "

❖ وأما الثانية فكان له معها الدوام والود والسكن ؛ . . والذرية . . !

❖ والثانية "جرهمية" ممن نشأ" إسماعيل" بينهم فى "مكة" ، وتلقى عنهم العربية الفصحى قال رسول الله ﷺ؟ : (أول من فتق لسانه بالعربية البينة "إسماعيل" وهو ابن أربع عشرة سنة)(١)

بعد وفاة "هاجر" تزوج "إسماعيل" ـ عليه السلام ـ بفتاة من "العماليق" ، وهم عرب قدموا إلى "مكة" وقد عمرت فأقاموا فيها مع قبيلة "جرهم" الذين كانوا أوّل من نزل مع "هاجر" ، وقد استأذنوها

---

(١)رواه "محمد الباقر" عن على زين العابدين " ـ رضى الله عنهما ـ .

بماء " زمزم " فأذنت لهم ـ كان إسم الفتاة من العماليق " عمارة بنت سعد " .

وكان من عادة سيدنا " إبراهيم " الخليل ـ عليه السلام ـ أن يأتى " مكة " زائراً لـ " هاجر " وولده " إسماعيل يتفقد حالهم ويطمئن إليهم ، بيْن الحين والحين .

فأتى " مكة " وقد ماتت " هاجر " وتزوج " إسماعيل " . . ، فلم يجد ولده فى البيت ، فسأل زوجته " عمارة " عنه ، فقالت : خرج يبتغى لنا . . ، يسعى علينا فى طعامنا وشرابنا . . ، فسألها " إبراهيم " : كيف عيشكم وحالكم؟ فقالت " عمارة " : نحن بشَرٍّ . . ! نحن فى ضيق وشدة . . ، واشتكت له من سوء الحال . . ، فأدرك ـ عليه السلام ـ أنها ليست فى قناعة ورضى . . ، وأنها ليست بالزوجة الصالحة الجديرة بنبىّ . . ، فآثر الرحيل ، وقال لها : إذا جاء زوجك فأقرئى عليه السلام وقول له يغير عتبة بابه ! ! ولم يخبرها عن نفسه بشئ .

فلما رجع " إسماعيل " من سعيه ـ وكان آنَسَ شيئا (١) ؟ . ـ قال لزوجته : هل جاءكم من أحد ؟ فقالت : نعم جاءنا شيخ من صفته كذا وكذا . . ، فسألنا عنك فأخبرته ـ وسألنا كيف عيشنا؟ فأخبرته أننا فى جهد وشدة . . ، فقال " إسماعيل " : هل أوصاك بشئ ؟ قالت : نعم أمرنى أن أقرأ عليك السلام ، ويقول لك : غيرِّ عتبة بابك . . ! فقال " إسماعيل " ذاك أبى . . ! ، وقد أمرنى أنَ أفارك ، فالحقى بأهلك ؛ وطلقها .

ثم تزوج ـ عليه السلام ـ من " السيدة بنت مضاض " ـ الجرهمية . . !

---

(١) لعله ـ عليه السلام ـ رأى شيئاً جذب آهتمامه .

وجاءَهم " إبراهيم " الخليل ـ عليه السلام ـ زائراً أيضاً . . بعد فترة ، فلم يجد " إسماعيل " . . ، ووجد " السيدة " زوجته ، فسألها عنه ، فقالت : خرج يبتغى لنا . . ، فقال " كيف أنتم ؟ وكيف عيشكم وحالكم ؟ فقالت " : نحن بخير وسعة ، وحمدت الله تعالى ، فسألها : ما طعامكم ؟ قالت اللحم . ثم سألها : وما شرابكم ؟ فقالت : الماء . . ، فدعا " إبراهيم " ـ عليه السلام ـ ربه قائلاً : اللهم بارك لهم فى اللحم والماء . . !

وقال " إبراهيم " لـ " السيدة " : إذا جاء زوجك فآقرئى عليه السلام ـ، ومريه ـ يثبت عتبة بابه . فلما رجع " إسماعيل " سألها : هل أتاكم من أحد؟ قالت : نعم أتانا شيخ حسن الهيئة ـ وأثنت عليه ، فسألنى عنك فأخبرته ، فسألنى : كيف عيشنا . فأخبرته أننا بخير ، قال : فهل أوصاك بشىء؟ قالت نعم . . هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . . !

قال : " إسماعيل " ـ عليه السلام ـ " ذاك أبى . . ، وأنت العتبة ، وأمرنى أن أمسكك .

وأنجب " إسماعيل ـ عليه السلام ـ منها اثنى عشر ولداً ذكراً هم : " نابت " و " قيدار " و " أزبل " و " ميشى " و " مسْمع " و " ماش " و " دوصا " و " آزر " و " يطور " و " نبش " و " طيما " و " قَيذْما " .

ذكرهم بأسماهم " محمد بن إسحاق " ؛ وهى نَفس الأسماء عند أهل الكتاب . وكان له ابنة إسمها " قسمة " ، أوصى أخاه " إسحاق " عند وفاته أن يزوجها من ابنه " العيص " أخى " يعقوب " ـ عليه السلام ـ

وعـرب الحجـاز ـ كمـا يقـول المؤرخـون وعلماء النسب ـ هم من ذرية ولديـه " نابـت " و " قـيدار " ؛ وأمهـم هـى " السـيدة بنـت مضـاض الجرهمية " .

وهـنا تـنقطع أخبارها فلا ندرى هل ماتت فى حياة " إسماعيل " ـ عليه السلام ـ أم بعده ؟ الله أعلم .

"رفقا بنت بتوئيل"

- و" قيل : " رفقة " . . ، كلاهما من جذر لغويّ واحد ، وهو الرفق!
- تزوجها " إسحاق " ـ عليه السلام ـ بعد وفاة أبيه بوصية منه
- كانت زوجة لنبى وأما لنبى . !
- زوجة لإسحاق وأما ليعقوب . . !
- أما إسم إسحاق فكان تسميةً من أمه "سارة" ولفظة بالعبرية : يَتصَحق؛ ومعناه : يَضْحك ؛ وقد أرادت سارة : بذلك أن من يسمع بحملها له وهى عاقر . . وزوجها " إبراهيم " عليه السلام ـ قد شاخ وهرم . . ، لابد أن يضحك !! ليس سخرية ولكن إعجاباً بقدرة الله تعالى .

لم يذكر القرآن الكريم شيئاً عن قصة زواج "إسحاق" من "رفقة" ولا ورد فى السنة المطهرة ما يشير إلى ذلك؛ لكن المؤرخين وكتاب السير

اعتمدوا رواية "التوراة" [1] التى بأيدى أهل الكتاب ، وقد بينوا ذلك ونوردها لك ـ عزيزى القارئ ـ كما أوردوها ؛ [2] .

وملخصها أن "إبراهيم" لما شاخ أتى بعبده المستولى على بيته (لعازر) [3] .

وأحلفه على أنه لا يأخذ لابنه "إسحاق" زوجة من بنات الكنعانيين الموجودين فى فلسطين !!! ويأخذ له زوجة من عشيرته وبنى أبيه ، وأنه لا يرد ابنه إلى الأرض التى خرج هو منها . . ، إذا تأبّت عليه الزوجة ، وامتنعت من الانتقال .

فذهب ذلك العبد وهيأ ما يصلح أن يكون هدية للزوجة ، وأخذ من الجمال والأموال ما أحب ، وذهب إلى "آرام" [4] . ، وأناخ جماله خارج المدينة التى بها أسرة "ناحور" أخى "براهيم" ، وإذا بفتاة حسنة المظهر . . . خرجت من المدينة وجرتها على كتفها ، فملأت الجرة . . . ، فقال لها العبْد : أسقينى . . . ، فأنزلت الجرة وأعطته إياها ليشرب ، وقالت : إستقى لجمالك أيضا . . ، فتفرس فيها إلى أن فرغ من سَقْىِ الجمال ، وحلى أنفها بخزامة [5] من ذهب ، ويديْها بسوارين من الذهب ، وسألها بنت من هى ؟ وهل عند أبيها مكان لمبيته وجماله ؟

فأخبرته بأنها بنت "بتوئيل من ناحور" [6] . وأن عندهم مبيتا وعلفا لماشيته ، وأسرعت إلى البيت وأخبرت بما رأت ، وكان إسم الفتاة :

---

(١)فى الاصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين .

(٢)قصص الأنبياء لـ " عبدالوهاب النجار " " (ص: ١٤٤) .

(٣)أي المتولى على المعبد .

(٤) آرام : بابل .

(٥) الخزامة : حلقة من شعر تجعل فى وترة أنف البعير يشد فيها الزمام .

(٦) على هذا تكون ابنة ابن أخى " إبراهيم " .

" رفقة " ؛ وقام " لابان بن بتوئيل "[1]. فى الحال إلى حيث عبد " إبراهيم " وأضافه وأكرم مثواه .

وفـى الحال أخبرهم عبد " إبراهيم " ، بما جاء لأجله وأنه يريد " رفقة " لابن سيده ، فأجابوه إلى ما طلب.

وأعطاهـا آنـية مـن ذهـب وفضـة وثياباً وتحفا لأخيها وأمها ؛ ثم طلب إليهم أن ينصرفوا سريعاً ، ووافقته " رفقة " على التعجيل بالمسير ، فذهب بها إلى ديار سيده .

وكانت عزاء لـ " إسحاق " بعد موت أمه ـ " سارة " ـ . !) (إ. هـ) .

ومـن خـلال اسـتقراء حـياة " إسـحاق " ـ عليه السلام ـ فإنا نجد أنه لـم يكـن لـه دور ملحـوظ سـوى إرث النبوة بعد أبيه " إبراهيم " ثم قيامه على هذا الإرث خير قيام ؛ ثم إنجابه لـ " يعقوب " ـ عليهم السلام ـ.

حملـت رفقـة مـن " إسـحاق " ـ عليه السلام ـ ثم ولدت توأمين ذكرين تقـول روايـة " الـتوراة " عـن ذلـك[2] : (إن " إسحاق " لما تزوج " رفقا "[3] بنت بتوئيل " فى حياة أبيه ، كان عمره أربعين سنة ، وأنها كانت عاقراً ، فـدعا الله لهـا فحملت ، فولدت غلامين توأمين : أولهما " عيصو " ـ وهو الـذى تسـميه العرب " العيص " ، وهو والد الروم ، والثانى : خرج وهو آخـذ بعقب أخيه فسموه " يعقوب " ، وهو " إسرائيل " والذى ينسب إليه " بنو إسرائيل " .

وكـان " إسحاق " يحب " العيصو " أكثر من يعقوب ، لأنه بكره . . ! ، وكانت أمهما " رفقا " تحب " يعقوب " أكثر لأنَّه الأصغر ! ! .

---

(١) أخوها .

(٢) نوردها على ما فيها من تخليط وافتراء .

(٤) كذا جاءت تسميتها عند " ابن كثير " .

فلمـا كـبر " إسـحاق " . وضـعف بصـره اشـتهى على ابنه " العيص " طعامـا ، وأمـره أن يـذهـب فيصـطاد لـه صـيداً ويطـبخه له ، ليبارك عليه ويدعـو لـه ، وكـان " العـيص " صـاحب صـيد ، فـذهب يبتغـى ذلك ، فأمـرت " رفقـا " ابنها " يعقوب " أن يذبح جديين من خيار غنمه ، ويصنع مـنهما طعامـاً كما اشتهاه أبوه ، ويأتى إليه به قبل أخيه ليدعو له ، فقامت فالبسته ثياب أخيه ، وجعلت على ذراَعيه وعنقه من جلد الجديين ، لأن : العيص " كان أشعر الجسد ، ويعقوب : ليس كذلك .

فلمـا جـاء بـه وقرّبه إليه ، قال : من أنت ؟ قال : ولدك . . فضمه إليه وجسه وجعل يقول : أما الصوت فصوت : يعقوب " وأما الجسد والثياب فـ " العيص " .

فلمـا أكـل وفـرغ دعـا لـه أن يكـون أكبر إخوته قدراً ، وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده ، وأن يكثر رزقه وولده .

فلمـا خـرج من عنده جاء أخوه " العيص " بما أمره به والده فقربه إليه ، فقـال لـه : مـا هذا يا بنى ؟ قا ل : هذا الطعام الذى اشتهيته . ! فقال : أما جئتنى به قبل الساعة وأكلت منه ودعوت لك ؟ فقال : لا والله . . !

وعـرف أن أخـاه قـد سـبقه إلى ذلـك ، فـوجد فـى نفسـه علـيه وجداً كثيرا . . . ، وذكروا أنه توعده بالقتل إذا مات أبوهما . وسأل أباه فدعا له بدعـوات أخـرى ، وأن يجعـل لذريـته غلـيظ الأرض وأن يكثـر أرزاقهـم وثمارهم .

فلمـا سمعـت أمهمـا ـ " رفقـا " ـ مـا يـتوعد بـه " العـيص " أخـاه " يعقـوب " ، أمـرت ابنها " يعقوب " أن يذهب إلى أخيها " لابان " بأرض " حـران " ، وأن يكون عنده إلى حين يسكن غضب أخيه عليه ، وأن يتزوج مـن بناته ، وقالت لزوجها " إسحاق " أن يأمره بذلك ، ويوصيه ، ويدعو له ، ففعل) إ . هـ .

خـرج "يعقـوب" إلى "حـران" هاربـاً . . ! وبقـى "العـيص" فـى "فلسـطين" إلى جانـب أبيه "إسحاق" وأمّه "رفقة" . . ، وكان قد ورث السلطان عن أبيه واجتمع له المال الكثير . . . و العبيد . . . والمواشى . . . والنفوذ على الناس !!

ولقـد عاشـت "رفقـة" دهـراً . . . إلى إن أبْتَعَثَ الله تعالى "يعقوب" نبيـاً ورسـولاً ، عـاد مـن أرض "حران" إلى "فلسطين" بأزواجه وإمائه و أولاده فى حشد عظيم . . واصطلح مع أخيه "العيص" . . !

ولـم تذكر كتب التاريخ متى كانت وفاتها وأين دفنت ـ على التحديد!؟

"ليا" و "راحيل" [1] ؟ و"زلفى و "بلهى"

- "ليا" و "راحيل" أختان لأب واحد هو "لابان"[2] .
- وزجتان لنبى الله "يعقوب" ـ عليه السلام ـ
- وكان الزواج بالأختين مشروعاً آنذاك على مذهبهم . . ![3]
- منهما ومن جاريتهما "زلفى" و "بلهى" كان الأسباط الأثنى عشر بنو إسرائيل " .
- ومنهن تسلسلتَ النبوة فى بنى "إسرائيل" حتى عيسى" ـ عليه السلام ـ .

خرج "يعقوب" ـ عليه السلام ـ هارباً من غضب أخيه "العيص" . . ، مشمولاً بدعوة أبيه "إسحاق" ـ عليه السلام ـ ، وتقول رواية "التوراة" :

(فأدركه المساء فى موضع فنام فيه ، وأخذ حجراً فوضعه تحت رأسه ونام ، فرأى فى نومه ذلك معراجاً منصوباً من السماء إلى الأرض ،

---

(١) ويقال ليئة " بدلاً من "ليا" ؛ كما حرف إسم "راحيل" إلى "راشيل" و أمّا "زلفى" فكانت جارية لـ "ليا" ، و "بلهى" كانت جارية لـ "راحيل" .

(٢) أخو "رفقة" وخال "العيص" و "يعقوب" .

(٣) ثم نسخ ذلك .

وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون ، والرب تبارك وتعالى يخاطبه ويقول له : "إنى سأبارك عليك وأكثر ذريتك ، وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك "[1] .

فلما هب من نومه فرح بما رأى ، ونذر لله إن رجع إلى أهله سالماً ليبنين فى هذا الموضع معبداً لله عز وجل ، وأن جميع ما يرزقه من شئ يكون لله عُشره .

ثم عمد إلى ذلك الحجر فجعل عليه دهنا يتعرفه به ، وسمى ذلك الموضع " بيت إيل " ، أى : بيت الله[2] ؟ .

(فلما قدم "يعقوب" على خاله ـ "لابان" ـ أرض "حران" إذا له ابنتان ، اسم الكبرى "ليا" واسم الصغرى "راحيل" ـ وكانت أحسنهما وأجملهما ـ فطلب زواجها ، فأجابه إلى ذلك بشرط أن يرعى غنمه سبع سنين .

فلما مضت المدة على خاله "لابان" صنع طعاماً وجمع الناس عليه ، وزف إليه ليلا ابنته الكبرى "ليا" وكانت ضعيفة العينين ، قبيحة المنظر ، فلما أصبح "يعقوب" إذا هى "ليا" ، فقال لخاله : لم غدرت بى ؟ وأنا إنما خطبت إليك "راحيل" ؟ فقال " إنه ليس من سنَّتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى ، فإن أحببت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوجكها . . ، فعمل سبع سنين ، وأدخلها عليه مع أختها . . ![3] .

---

(١) وكان ذلك ابتدأ نبوته ـ عليه السلام ـ .

(٢) هو موضع بيت المقدس اليوم نقلا عن "التوراة" .

(٣) مما هو جدير بالملاحظة والتأمل نَفَسُ الغدر والحيلة الذى تسرد به التوراة القصص، عن الأنبياء وزَوْجاتهم . . ! وكأنهما خلّتان حميدتان أو صفتان كريمتان . . !! مَبْعثهما الذكاء والدهاء . . !!

ووهـب " لابـان " لكل واحدة من ابنتيه جارية ، فوهب لـ" ليا " جارية إسمها " زلفى " ووهب لـ " راحيل " جارية اسمها " بلهى " .

وجـبر الله تعـالى " لـيا " بـأن وهـب لها أولاداً، فكان أول من ولدت لـ " يعقـوب " : " روبـين " ثـم " شمعـون " ثـم " لاوى " ثم " يهوذا " ؛ فغـارت عـند ذلـك " راحيل " ـ وكانت لا تحبل ـ فوهبت لـ " يعقوب " جاريـتها " بلهى " فوطئها . . فحملت ، وولدت له غلاماً سمته " دان " وحملـت غلامـاً آخـر سمـته " نيفتالى " فعمدت عند ذلك " ليا " فوهبت " زلفى " لـ " يعقوب " فولدت له : " جاد " و " أشير " غلامين ذكرين ، ثـم حملـت " ليا " أيضاً ، فولدت غلاماً خامساً وسمته " إيساخر " ، ثم حملـت وولـدت غلامـا سادساً سمته " زبلون "[1] . ، ثم حملت وولدت بنتاً سمتها " دينا ، فصارلها سبعة من " يعقوب " .

ثـم دعـت الله تعـالى " راحـيل " وسـألته أن يهـب لهـا غلامـاً مـن " يعقـوب " ، فسـمع الله نداءهـا وأجاب دعاءها ، فحملت من نبيِّ الله " يعقوب " فولدت غلاماً عظيماً شريفاً حسنا جميلاً سمته " يوسف " كـل هذا وهم مقيمون بأرض " حران " ، و " يعقوب " يرعى على خاله غـنمه بعـد دخوله على البنتين ، ست سنين أخرى ، فصار ـ مدة مقامه عشرين سنة .

فطلـب " يعقوب " من خاله " لابان " أن يسرحه ليسير إلى أهله ، فقال لـه خالـه : " إنـى قـد بـورك لى بسـببك فسلنى من مالى ما شئت . . ، فقـال : تعطـينى كـل حمـل يولـد من غنمك هذه السنة أبقع . . ، وكل

---

(١) فـى مدينـة " صـيدا " عاصـمة جنـوب لبـنان مقاميْن يعرفان بـ " النبى شمعون " و " النبى صيدون " اعتـنى الإسـرائيليون بـالأخير منهما عند اجتياحهم لـ " لبنان " عام (١٩٨٢) فأعاداوا بناءه وجددوه وكسوه ، اعتقاداً منهم بإنه " زبلون " أحد أبناء " يعقوب " ـ عليه السلام ـ .

حمل ملمّع أبيض بسواد ، وكل أملح ببياض ، وكل أجلح أبيض من المعز . . ،

فقال : نعم . . !

فعمد بنوه فأبرزوا من غنم أبيهم ما كان على هذه الصفات من التيوس ـ لئلا يولد شيء من الحملان على هذه الصفات . . ، وساروا بها مسيرة ثلاثة أيام عن غنم أبيهم .

فعمد "يعقوب" إلى قضبان رطبة من لوز ولبٍّ . . ، فكان يقشرها بلقا ، وينصبها فى مساقى الغنم من المياه ، لتنظر إليها الغنم فتفزع وتتحرك أولادها فى بطونها ، فتصير ألوان حملانها كذلك .

فصار لـ "يعقوب" أغنام كثيرة . . ! ودواب . . وعبيد . . ، وتغير له وجه خاله وبنيه ، وكأنهم انْحصروا منه !

وأوحى الله تعالى ـ إلى "يعقوب" أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه ، ووعده بأن يكون معه ، فعرض ذلك على أهله فأجابوه مبادرين إلى طاعته ، فتحمل بأهله ورجاله ، وسرقت "راحيل" أصنام أبيها فلما جاوزوا وتحيَّزوا عن بلادهم لحقهم "لابان" ، وقومه ، فلما اجتمع "لابان" ، بـ "يعقوب" عاتبه فى خروجه بغير علمه . . ! وهلاّ أعلمه فيخرجهم فى فرح ومزاهر وطبول ، وحتى يودع بناته وأولادهن ، ولَمَ أخذوا أصنامه معهم ؟ ولم يكن عند "يعقوب" علم من أصَنامه؟ . . فَأ نكر أن يكونوا أخذوا له أصناماً ، فدخل بيوت بناته وإمائهنَ يُفتِّش فلم يجد شيئاً .

وكانَت "راحيل" قد جعلت الأصنام فى بردعة الجمل وهى تحتها فلم تقم واعتذرت بأنهت طامث . . . (وقيل بل جعلتها عمّته فى حزام على بطن "يوسف" وهو صغير ليكون فى حضانتها . . ، وهذا أصوب لأنه تمشى مع قول الله تعالى فى سورة يوسف ﴿قَالُوٓاْ إِن

يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ (يوسف : ٧٧)) إ . هـ.

ومضى " يعقوب " ـ عليه السلام ـ بعد أن تعاهد وتواثق مع خاله " لابان " ـ إلى " فلسطين " راجيا من الله تعالى أن يكف عنه شر أخيه " العيص " الذى خرج ليمنعه . !

وقدَّم بين يديه هدايا لأخيه " العيص " ، ففعلت فعلها ، فلما التقيا خضع له " يعقوب " و تذلَّل ، فقبل منه " العيص " وسامحه ، وتقدم أمامه حتى نزل " يعقوب " قبل " بيت المقدس " وابتنى مذبحاً ـ معبداً ـ سمّاهُ " إيل " .

" ثم حملت " راحيل " . . ، فلما كان أوان الوضع جهدت فى طلقها جهداً شديداً ، ماتت عقبه ، وقد وضعت غلاماً هو " بنيامين " أخا " يوسف " لأمِّه وهو أصغر أبناء " يعقوب " ـ عليه السلام ـ ، فدفنها " يعقوب " فى " أفرات " ـ بيت لحم ـ ، وجعل على قبرها كوماً من الحجار وتعرف اليوم بقَبْر " راحيل " ـ أو قبة " راحيل " ـ وانتقل " يعقوب " إلى " حبرون " حيث يقيم والده " إسحاق " ـ عليه السلام ـ ، ثم مرض " إسحاق " وتوفاه الله تعالى إليه ، فدفنه إبناه " يعقوب " و " العيص " فى نفس المغارة التى دفن فيها من قبل " إبراهيم " و " سارة " .

زوجة "يوسف" ـ عليه السلام ـ ؟؟

- من هى؟
- ومتى تزوج ؟
- وكم ولد له ؟
- ومن هم ذريته؟

أسئلة اعترضتْنى أثناء التحقيق والبحث . . ، حتى وقَفتُ عند إسم زوجة "أيوب" ـ عليه السلام ـ وقد اختلف كتاب السير فيها فقالوا: "ليا" ، بنت "يعقوب" أو "رحمة" بنت "أفراييم" أو "ليا" بنت "منشا"[1] . ابن "يوسف" ابن "يعقوب" ؛ ورجح "ابن كثير" ـ رحمه الله ـ الإسم الثالث لأنه أشهر .

إذاً . . تزوج "يوسف" ـ عليه السلام ـ . . ولكن بعد خلاصه من محنة السجن ، والتمكين له فى السلطان . . ! وقصتهُ ـ عليه السلام ـ أشهر من أن نكرر الحديث عن تفاصيلها وأدوارها ، ولكنّا نستخلص منها الدروس والعبر التالية :

---

(١) أو "منشا" همو إسم شائع عند اليهود . . وهو أخو "أفراييم" ـ ولدى "يوسف"

١ـ نشأته على رفيع الأخلاق وسامى الصفات ، والصدق مع الله تعالى .
٢ـ كفه النفس عن شهواتها ومغرياتها .
٣ـ الإيمان بالمبدأ مهما كانت الصعاب .
٤ـ الالتجاء إلى الله تعالى فى الملمات .
٥ـ ايثاره البراءة على الحرية الممنوحة .
٦ـ خلق الصبر الذى لَفَّهُ طوال حياته كلها من أذى إخوته له . . إلى الجب الذى ألقى فيه . . . ، إلى الخدمة عبداً فى بيت العزيز . . ، إلى مراودة امرأة العزيز له ثم تماسكه وإبائه . . ، إلى ظلمة السجن ظلما . . ، إلى تحمل مسؤولية السلطة بقوة وأمانة ! ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ (يوسف : ٩٠) .

وغيرها كثير . . ! والذى زوَّج "يوسف" ـ عليه السلام ـ هو الملك . . !

قالوا : (وكان "يوسف" إذ ذاك ابن ثلاثين سنة ، وزوجه (الملك) (امرأة عظيمة الشأن وحكى "الثعلبى" : أن الملك عزل "قطفير" ـ العزيز ـ عن وظيفته وولاها "يوسف" .

وقيل : إنه لما مات "قطفير" زوجه (الملك) امرأته "زليخا"[1] ، فوجدها عذراء ـ لأن زوجها كان لايأتى النساء ، فولدت لـ "يوسف" ـ عليه السلام ـ رجلين هما "أفراييم" و "منشا") .

---

(١) التى راودته فى بيتها ، وهذا إسمها على أشهر الروايات (يرجى مراجعة كتابنا (يوسف وامراة العزيز) نشر (مكتبة القرآن) .

"ليا" زوجة "أيوب" ـ عليه السلام ـ

- "أيوب" والصبر ـ ع ـ صنوان متلازمان ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٤٤) وكما كان الصبر على البلاء امتحاناً له ومحنة ، كان كذلك لزوجته . . !
- حين نفر عنه الناس ـ بل أقربهم إليه بعد ابتلائه ـ احتملت زوجته البلاء وحدها !! صابرة محتسبة ، مكابدة صديقة ، بارَّةً راشدة !
- سواء كانت هذه الزوجة الصابرة : "ليا بنت يعقوب" أوْ "رحمة بنت أفراييم" أو "ليا بنت منشا بن يوسف" ـ على اختلاف الأسماء ـ فهى ذرية وسلالة أنبياء الله " ـ عليهم أفضل الصلاة وأزكى السلام .

روى عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه قال : (إن من أشد الناس ابتلاء الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل)[1] أما سيدنا "أيوب" ـ عليه السلام ـ فقد

---

(١) حديث صحيح رواه "البخارى" و "أحمد" .

قيل في نسبه أنه : " أيوب بن موص بن وعويل بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم " وقيل غير ذلك مع اتصال النسب بـ " إبراهيم " ـ عليه السلام ـ.

قال ابن كثير " ـ رحمه الله ـ :

(قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم : كان " أيوب " رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه من الأنعام والعبيد والمواشي ، والأراضي المتسعة ، بأرض الثنية من أرض " حوران ")

وأرض " حوران " ـ غير " حران " ـ تقع في الطرف الجنوبي من " سورية " على الحدود مع " الأردن " ؛ وتعتبر من أجود الأراضي السورية إنتاجاً للحبوب ، خصوصاً القمح .

وقال ابن كثير :

(وحكى " ابن عساكر " : إنها ـ أيْ حوران ـ كلها كانت له ، وكان له أولاد وأهلون كثير ، فسلب منه ذلك جميعه ، وابتلي في جسده بأنواع من البلاء ، ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه ، يذكر الله عز وجل ، وهو في ذلك كله صابر محتسب ، ذاكر لله عز وجل في ليله ونهاره ، وصباحه ومسائه) إ. هـ.

لقد ابتلي بالغنى وكثرة المال واتساع الثروة فكان شاكراً. . . !

ثم ابتلي بالفقر والمرض فكان صابراً . . ! والصابر والشاكر كلاهما في الجنة، ولقد ظهرت الزوجة في كلتا الحالتين : الشكر والصبر ، ظهوراً واضحاً . . ، فكانت تقدر نعمة الله تعالى على عباده وتعرف حقها ، ثم ابتليت بذهاب تلك النعمة ومرض العشير ، فكانت مثال الزوجة الصالحة .

ويمضي " ابن عساكر " في الحديث فيقول :

(وطال مرضه حتى عافه الجليس وأوحش منه الأنيس ، وأخرج من بلده وألقى على مزبلة خارجها[1] .

وانقطع عنه الناس ، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته (" ليا ") كانت ترعى له حقه ، وتعرف قديم إحسانه إليها وشفقته عليها . . ، وكانت تتردد عليه فتصلح من شأنه ، وتعينه على قضاء حاجته ، وتقوم بمصلحته ، وضعُف حالها ، وقل مالها ، حتى كانت تخدم بالأجر ، لتطعمه وتقوم بأوده ـ رضى الله عنها وأرضاها ـ وهى صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد ، وما يختص بها من المصيبة بالزوج ، وضيق ذات اليد ، وخدمة الناس ، بعد السعادة والنعمة ، والخدمة والحرمة).

ويقول " ابن كثير " :

(وقد روي عن " وهب بن منبه " وغيره من علماء " بنى إسرائيل " فى قصة " أيوب " خبر طويل ، فى كيفية ذهاب ماله وولده وبلائه فى جسده . والله أعلم بصحته).

ولقد اختلف الرواة والمؤرخون وكتاب السير فى المدة التى قضاها " أيوب " عليه السلام ـ مُبْتلىً . . ، فقيل : ثلاثة سنين ، وقيل سبع . . ، وقيل ثمانى عشر . . !

ويحكى لنا " السدى " ظروف معايشة زوجة " أيوب " له فى بلواه فيقول : (تساقط لحمه حتى لم يبق إلا العظم والعصب . . . فكانت امرأته تأتيه بالرماد تفرشه تحته ، فلما طال عليها قالت : يا " أيوب " لو دعوت ربك لفرَّج عنك !؟ فقال : قد عشت سبعين سنة صحيحاً ، فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة ؟

---

(١) هذ كلام " التوراة " . . !!

فجزعت من هذا الكلام . . ، وكانت تخدم الناس بالأجر وتطعم " أيوب " ـ عليه السلام ـ ؛ ثم إن الناس لم يكونوا يستخدمونها لعلمهم أنها امرأة " أيوب " خوفاً أن ينالهم من بلائه ، أو تعْديهم بمخالطته . . ، فلما لم تجد أحداً يستخدمها عمدت فباعت لبعض الأشراف إحدى ضفيرتيها بطعام طيب كثير ، فأتت به " أيوب " ، فقال : من أين لك هذا؟ فقالت : خدمت أناساً .

فلما كان الغد لم تجد أحداً . . فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتته به ، فأنكر أيضا ، وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين هذا الطعام ؟ فكشفت عن رأسها خمارها ، فلما رأى رأسها محلوقة قال في دعائه : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ (الأنبياء : ٨٣) ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ (الأنبياء : ٨٤)

﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (ص : ٤٢ ـ ٤٤)

سمع الله تعالى نداء " أيوب " ـ عليه السلام ـ ودعاءه ، فأوْحى إليه أن يضرب الأرض برجله ، فأنبع له عينا باردة ، وأمرهُ أن يغتسل منها ويشرب . . . ، ففعل . . . وأذهب الله تعالى عنه ما كان به من أذى وألم ، ومرض وسقم ، وأبدله نعمة الصحة والعافية . . . !

وكانت امرأته تعينه على قضاء حاجته فلما ، أبطأت عليه . . . ـ قبْل الدعاء والنداء . . . وعند رؤيته لها وقد باعت ضفيرتيها . . . ـ حلف أن

يضـر بهـا مائـة سَـوْط جـزاء . . ! فلما عادت ، وقد أذهـب الله عنه ما كان بـه . . . ، لم تعـرفه . . . ، أو تغير لها . . . ، أو شكّتْ . . ! ، فقالت فى دهشـة : أى بارك الله فيك . . ، هل رأيت نبى الله هذا الـمُبْتلى . . فوالله ـ القديـر عـلى ذلـك ـ مارأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً !؟ قال : فإنى أنا هو ؟

ثـم إن الله تعالى تكرمةً منه لهذه الزوجة الصابرة ، ونبوة " أيوب " ـ عليه السـلام ـ ، أوحى إليه أن يأخذضغثاً ـ وهو كالعثكال الذى يجمع الشمارخ ـ ويضـربها ضـربه واحـدة ، وفاءً للقسم ، ورخصة . . ! ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٤٤) وكمـا عوضـه الله تعـالى عـن المـرض عافـيةً ، كذلـك عوضه عن الفقر والحاجة غني . . . وزاده ! كذلك عوضه الولـد مـن البـنين والبـنات ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾ (الأنبـيـاء : ٨٤) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (ص: ٤٣)

وروى الإمـام أحمـد عـن " أبـى هريـرة " ـ رضى الله عنه ـ قال : أرسل عـلى " أيـوب " رَجْـلٌ من جراد من ذهب ، فجعل يقبضها فى ثوبه . . ، فقـيل : يـا " أيـوب " ألـم يكفـك ما أعطيناك ؟ قال " أى رب ومن يستغنى عن فضلك !! [1])

وروى " ابن حبان " :

---

(١) وكذلك رواه " البخارى " و " النسائى " والرِّجْل : السرب.

(كـان له أندران [1] ، أندر للقمح وأندر للشعير ، فبعث الله سحابتين ؛ فـلما كانـت إحداهمـا عـلى أنـدر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاض ، وأفرغت الأخرى فى أندر الشعير الوَرِق حتى فاض) .

وممّـا يقـال فـى ذكر ولده : أن " ذا الكفل " الذى جاء ذكره فى القرآن :
﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ
وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾
(الأنبياء : ٨٥ ـ ٨٦) ، هو " بشر بن أيوب " . ؛ ورث النبوة بعد أبيه وقام بمهامها وأعبائها .

---

(١) الأندر : البَيْدر بلغة أهل الشام ، والجرن بلغة أهل مصر .

"صفورا"[(١)]

❖ زوجة "موسى" ـ عليه السلام ـ
❖ وإحدى ابنتى شيخ "مدين" . . !
❖ هكذا سمّتْها كتب أهل الكتاب .

"موسى" عليه السلام ـ هو "ابن عمران بن ماهن بن عازر بن لاوى ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم" ـ عليهم السلام ـ[(٢)] ، ذكره الله تعالى فى مواضع كثيرة متفرقة فى القرآن الكريم ، وذكر قصته فى مواضع متعددة مبسوطة ، مطولة وغير مطولة ؛[(٣)] . والذى يقتضينا الحديث عنه بصدد البحث عن (زوجات الأنبياء) ـ عليهم السلام ـ اجْتزاء الواقعة ، فولادته ـ عليه السلام ـ ونشأته فى بيت "فرعون" أشهر من أن نكرر القول فيها .

ونكتفى بالآيات البينات . . !

---

(١) لا نثبت الإسم ولا ننفيه ، فليس فى الأثر الشريف ، ولا فى مرويات المؤرخين وعلماء النسب ما يشير إلى ذلك .

(٢) "عمران" والد "موسى" هو غير "عمران" والد "مريم" أم "عيسى" عليهما السلام ـ وهذا واضح وجليّ.

(٣) تكرر ذكر اسمه ـ عليه السلام ـ فى القرآن الكريم مائة وست وثلاثين مرة (١٣٦) .

يقول تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢
نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا
شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ
وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤
وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ
وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى
ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا
كَانُواْ يَحْذَرُونَ﴾ (القصص: ١-٦)

ويقول عز وجل: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا
خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ
إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ
فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ
وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ
قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ
وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (القصص: ٧-٩)

يقول سبحانه: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ
لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن
جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن
قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ
وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا

وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ (القصص: ١٠-١٣)

وقال جل شأنه: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ (القصص: ١٤-١٧)

ثم يقول تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ فَلَمَّآ ﴿١٨﴾ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (القصص: ١٨-٢١).

وهنا نبلغ الغاية فنصل إلى بيت القصيد . . !

خرج "موسى" ـ عليه السلام ـ من مصر خائفاً يترقب . . ، يتلفت خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون . . . ، وهو لايدرى أين يتوجه

. . ولا إلى أين يذهب . . . ، فلما سلك تلقاء مدين . دعا فقال: ﴿ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾(القصص: ٢٢) . لعلّ وعسى أن تكون هذه الطريق موصلة إلى المقصود .

وبين "مصر" و"مدين" آماد وأبعاد ، ومسافات شاسعة ، فـ"مدين" تقع حول خليج "العقبة" ، عند نهايته الشمالية ، وشمال الحجاز " وجنوب "فلسطين" . . !

روى "الطبري" في تاريخه عن "سعيد بن جبر" ـ رضى الله عنه ـ أنه قال : (ما بين "مصر" و"مدين" ، ثماني ليال) ـ أي لراكب الإبل . . ، فما بالك بـ "موسى" ـ عليه السلام ـ وقد قصدها ماشياً على قدميه ، لم يتزود للطريق ، ولم يعد للسفر عدته ، متوكلا على الله تعالى . . . ، ولم يكن في قافلة أو رفقة . . . ، ولم يكن له طعام سوى ورق الشجر ، فعن "ابن عباس" ـ رضى الله عنهما ـ قال : (إن "موسى" ـ عليه السلام ـ ورد ماء "مدين" وإن خضرة البقل لتتراءى من بطنه من الهزال) وأنه ـ عليه السلام ـ (خرج حافياً ، فما وصل إلى "مدين" حتى وقع خف قدمه) أي: أنّ الجلدة الملاصقة للأرض من قدمه قد أضر بها السير الحثيث المتواصل حتى سقطت . . !

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾(القصص: ٢٣)

فكان أول وصوله ـ عليه السلام ـ إلى أرض "مدين" إلى مائها ؛ وكانت بئراً يسقون منها ، فرأى الناس ـ الرعاء ـ يتزاحمون على البئر ، يشربون ، ويسقون ماشيتهم . . . ، ورأى امرأتين ـ فتاتين ـ تقفان بعيداً تكفكفان غنمهما أن تختلط بغنم الناس ، فسألهما عن شأنهما وحالهما ، وقد آذاه

وقـد آذاه تزاحم الناس ووقوف هاتين الفتاتين بمعزل . . . ، فأخبرتاه بأنهما لا تَجْـرؤان علـى ورود المـاء حتـى يفرغ الرعاء ، وأنهما بنتين لرجل شيخ . . . قـد طعـن فـى السن . . فلا يقوى على مزوالة عمل ، فهما تقومان مقامه . . !

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾(القصص : ٢٤) . . !

يقـول المفسرون : (كان الرعاء إذا فرغوا من وردهم ، وضعوا على فم البئـر صـخرة عظـيمة (غطـاءً) فتجئ هاتان الفتاتان فتشرعان غنمهما فى فضل أغنام الناس .

فلمـا كان ذلك اليوم . جاء " موسى " فرفع تلك الصخرة وحده[1] . . . ، ثـم استقى لهما وسقى غنمهما ، ثم رد الحجر ، قال أمير المؤمنين " عمر " ـ رضـى الله عـنه ـ : وكان لا يرفعه إلا عشرة وإنما استقى ذنوباً[2] واحداً فكفاهما) إ . هـ .

﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾(القصص : ٢٤) . بعد أن فرغ من مساعدة الفتاتين استراح ـ عليه السلام ـ فى ظل شجرة ، ودعا ربه !

عـادت الفـتاتان إلى أبـيهما ـ فآسـتهجن رجـوعهما مبكـرتيْن على غير عادتهمـا واستفسـرهما ، فحدثـتاه بأمـر الفتى الغريب ، وماكان من شأنه معهما ، فأرسل إليه يستدعيه مع إحدى البنتين[3] .

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾(القصص : ٢٥)

---

(١) كـان " موسى " ـ عليه السلام ـ قوى البدن والساعد ، ولا ننسى قول الله تعالى ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ أى ضربه بجمع يده ضربة واحدة كان فيها القضاء عليه .

(٢) الذنوب : الدلو الملآى ماء .

(٣) لعلها هى التى كانت زوجته فيما بعد ، ولعلها الكبرى .

جاءتـه تمشـى بخفَـر وحياء . . . مشى الحرائر ، وكانت عودتها سريعة فمـا يـزال "موسـى" ـ عليه السـلام ـ جالساً فى ظل الشجرة التى تركته عندها ، إذ لا مـأوى لـه ولا مقام ، فقالت له : ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ فقـام معهـا . . ، لـيس رغـبة فـى الجـزاء . . ، ولكن ـ عليه السلام ـ كان فى غاية الجوع ، والتعب والنصب مـن طول المسير ، فأراد الشبع والراحة ، وأيضا التعرف إلى الشيخ ، شيخ "مـدين" . . ! فلمـا جـاءه قـص عليـه القصـص وروى لـه فصول حياته وسـبب خـروجه مـن "مصـر" . . ، وكان الشيخ من قوم "شعيب"[1] ـ عليه السـلام ـ ، قـد أوتـى فهمـا وعلماً ، فقال لـ "موسى" ﴿قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(القصص : ٢٥) .

ثم أطعمه وسقاه وأكْرم مثواه ؛ وأضافه .

وكانـت الفـتاتان تسـتمعان إلى حـديث "موسى" ـ عليه السلام ـ وقد أعجبـتا بشخصـيته القـوية وأمانته ، فقالـت كـبراهما ـ "صـفورا"[2] . لأبـــيها : ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ﴾(القصـص : ٢٦) . وكـان الحـديث بمعـزل عن "موسى" فقال الشـيخ لابنـته : وما علمك بهذا ؟ بقوته وأمانته ـ فقالت : إنه رفع صخرة لا يطـيق رفعهـا إلا عشـرة . . ، وإنه لما جئت معه تقدمت أمامه ، فقال : كونـى ورائـى ، فـإذا اخـتلف الطـريق فأقْذفـى بحصـاة أعلـم بهـا كـيف الطريق . . ! !

وأدرك شـيخ "مدين" إعجاب ابنته بـ "موسى" ـ عليه السلام ـ ، كما أنه كان بحاجة إلى رجل يُعينه فى عمله ، ويحمل عنه المسؤولية .

---

(١) مـن قـال بأنـه هـو "شـعيب" فقـد أبعـد النجعة لتطاول الزمن ؛ وقيل بأنه ابن عم "شعيب" والله أعلم .

(٢) نذكر اسمها تمشيا مع المشهور .

فبيَّت ذلك فى نفسه ، ثم عرض على " موسى " - عليه السلام - أن يزوجه بابنته ويكون مهرها عمله عنده : ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(القصص : ٢٧) .

تخدمنى ثمانى سنين ، فإن تطوعت بعشر فيكون ذلك من عندك كرما وحسن معاشرة ، علما بأنى لا أريد أن أرهقك . . . ، ولسوف تجدنى إن شاء الله تعالى - حسن السيرة بك ومعك .

فأجابه " موسى " - عليه السلام - بالقبول والرضى ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾(القصص : ٢٨) .

وتزوج " موسى " - عليه السلام - ، وأقام فى " مدين " يؤدى علمه على أتم ما يكون ، ولقد سئل سيدنا رسول الله ﷺ عن زواج " موسى " - عليه السلام - فأجاب (إن " موسى " - عليه السلام - آجر نفسه ثمانى سنين أو عشرة - على عفة فرجه وطعام بطنه) [(١)] .

كما قال رسول الله ﷺ عن الأجلين : (سألت " جبريل " أى الأجلين قضى " موسى " ؟ قال : أتمهما واكملهما) [(٢)] . رُوى عن " ابن عباس " - رضى الله عنهما - وخلال السنوات العشر ولدت الزوجة لـ " موسى " - عليه السلام - غلامين . . !

فلما أتم مدة العمل القصوى ، آستأذن الشيخ بالمغادرة . . فأذن له ، ثم طلب من زوجته أن يمنحها أبوها من غنمه ما يعيشون به ، فأعطاها ما ولد من غنمه فى تلك السنة .

---

(١) رواه " ابن ماجة " .

(٢) اى عشر سنين .

ويروى أن " موسى " ـ عليه السلام ـ عمد إلى عصا قسمها من طرفها فى أدنى الحوض الذى تشرب منه الأغنام ، ثم أوردها فسقاها ، ووقف بإزاء الحوْض يضرب بعصاه جوانب الشياه . . ، فَٱتَّأمت وٱلْبَنَت ووضعت كلها . . ! فكثر قطيعه . . !

ثم خرج بأهله . . زوجته وولديه . . ، ويسوق غنمه بعصاه تلك . . ! متجهاً إلى " مصر " التى خرج منها خائفاً يترقب ، يبغى العودة إلى أمه وقومه من " بنى إسرائيل " .

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ (القصص : ٢٩ ـ ٣٢)

حتى تلك الساعة فى حياة سيدنا " موسى ـ عليه السلام ـ كان فى حفظ الله تعالى له ، يُقدِّرُ له أمره ونشأته ويصنعه على عينه . . ، ليبعثه فى حينها نبياً ورسولاً ! توسط " موسى ـ عليه السلام ـ بأهله وولديه وغنمه برية " سيناء " . . ! فلما جن عليهم الليل فى وادى " طوى " كان الظلام دامساً حالكاً ، والجو شديد البرودة قارساً . . ، فتلبَّث " موسى " لا يدرى كيف يفعل . . ؟

فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد ناراً تأجج فى جانب جبل الطور ، فطلب من أهله أن يمكثوا فى مكانهم ريثما يأتى تلك النار فيأتيهم منها بجذوة أو قبس ليستدفئوا . . ، أو يجد أحداً من الناس عندها يساعده ، أويدله على الطريق . . !

يقول الإمام " ابن كثير " ـ رحمه الله ـ (كأنه ـ والله أعلم ـ رآها دونهم ، لأن هذه النار هى نور فى الحقيقة ، ولا تصلح رؤيتها لكل أحد . .) إ . هـ .

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنۡهَا مَن لَّا يُؤۡمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرۡدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ (طه : ١١ـ١٦)

ولما بلغ " موسى ـ عليه السلام ـ موضع تلك النار وجدها تتأجج فى شجرة خضراء من " العوسج " [(١)] ، وكل ما لتلك النار فى اضطرام ، وكل ما لخضرة تلك الشجرة فى ازدياد ، فوقف متعجباً ! !

ثم سمع صوتاً آتياً من تلك الشجرة المنيرة يناديه ويعلنه أنه الله تعالى ـ جلت قدرته ومشيئته ـ ويأمره بخلع نعليه [(٢)] تعظيماً وتكريماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة ـ ولاسيما فى تلك الليلة المباركة ! ! .

---

(١) العوسج : شجر صحراوى ، كثير الشوك ، له زهر أبيض ـ وقيل عن الشجرة بأنها من " العليق " وهو شجيرات كثيرة الشوك ولها ثمر يشبه التوت الشامى طعما وشكلاً .

(٢) لا نجد فى طقوس العبادة (الصلاة) ـ إلا المسلمين ـ يخلعون النعال عند الأداء ـ اللهم إلا لعذر .

ليلة تكليم الله تعالى لـ " موسى " - عليه السلام - وإيذانه بالنبوة والرسالة ! .

ويخبره أنه رب العالمين الذى لاإله إلا هو ، والذى لا تصح العبادة وإقامة الصلاة إلا له ، وأن هذه الدنيا ليست بدا رقرار ، وإنما الدار الباقية يوم القيامة التى لابد من كونها ووجودها لتجزى كل نفس بما تسعى من خير أوشر ، وحضه على العمل لها ، ومجانبة من لا يؤمن بها ، ممن عصى مولاه واتبع هواه . . !

أُخذ " موسى " - عليه السلام - بما سمع ورأى . . ؛ فوقف مشْدوهاً مدهوشاً لا يتحرك . . ! فجاءه النداء ثانية مؤانسا مسرِّياً يقول : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ (طـه : ١٧)!؟ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾(طـه : ١٨) زاد فى الجواب عن السؤال ، وقد ارتاحت نفسه بعض الشئ . . ! ثم جاء الأمر من الله تعالى : ﴿قال ألقها يا موسى فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾(طـه : ١٩- ٢٠) هاله المنظر فولى عنها هارباً ﴿فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾(القصص : ٣١) إرتد هارباً - عليه السلام - لأن طبيعته البشرية تقتضى ذلك ، ولم يلتفت . . ، فناداه الله تعالى : ﴿يَـٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْأَمِنِينَ﴾ (القصص : ٣١) ، فأطمأن ورجع . . ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾(طـه : ٢١) ، فوضع يده فى كم مدرعته ، ثم وضع يده فى وسط فمها ، فلما فعل ذلك عادت كما كانت عصاً ذات شعبتين . . !

ثم ناداه ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن

رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ (القصص : ٣٢)

وأدخل "موسى" ـ عليه السلام ـ يده فى جيبه ـ وهى فتحة القميص عند العنق ـ ثم أخرجها . . ـ فإذا هى بيضاء تشع نوراً وبهاءً، من غير برص ولا بهق[1] .

كما أرشده ـ سبحانه وتعالى ـ أن يضع يده على فؤاده إذا شعر بخوف فيسكن جأشه ! .

وعاد "موسى" ـ عليه السلام ـ إلى أهله وقد اضطلع بمسؤولية النبوة وأمانة الرسالة ، وليواجه من بعد أعتى الجبابرة فى حينه "فرعون" وملأه . . ، ويجدد الإيمان فى قومه "بنى إسرائيل" ، ثم يخرج بهم من "مصر" إلى الأرض المقدسة .

كانت زوجته "صفورا" أول من آمن به وصدقه ، ولقد كانت تعرف من قبل معالم تلك الشخصية الفذة التى صنعها الله تعالى على عينه ، فاتبعته . . وكانت نعم الزوجة الصالحة للنبى المرسل "موسى" ـ عليه السلام ـ .

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (القصص : ٣٣ ـ ٣٥)

---

(١) البرص والبهق : دائين جلديين غير معديين ، وهما عبارة عن بقع بيضاء تصيب الجلد .

وكان " موسى " ـ عليه السلام ـ لا يتقن اللغة العبرية [1] فسأل الله تعالى أن يرسل معه أخاه " هارون " ليكون له وزيراً وعضداً وسنداً ، فاستجاب له . . . ، أعلمه بذلك . . وأنبأه بغلبته على " فرعون " وملئه ، مهما اشتدت الظروف وتكالبت الشدائد ، أو تضافرت قوى الشر والبغى والطغيان . . !

تابع " موسى " ـ عليه السلام ـ رحلة العودة إلى " مصر " . . . ، حتى إذا بلغها كان أول ما فعله زيارة أمه ولقاءه بأخيه " هارون " ، ومن ثم اتسقت جهودهما على مواجهة " فرعون " وإنذاره ، بالقول اللين والمنطق الواضح اللطيف ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ (طه : ٤٤)

وبدأ الصراع بين الحق والباطل . . ! وطال زمناً ، وامتد سنين عددا . . !

" موسى " و " هارون " ـ عليهما السلام ـ لا يفتران عن المتابعة فى الدعوة ، و " فرعون " يكابر ويعاند ، يدعوانه إلى الله تعالى ، وهو يزداد تكبرا وعلواً وطغياناً ، وينكر الخالق سبحانه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ (القصص : ٣٨) ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ (النازعات : ٢٣ـ٢٤) .

كثرت اللقاءات ، والحوارات ومازال " موسى " و " هارون " ـ عليهما السلام ـ يأخذان " فرعون " بالقول اللين . . . ، حتى إذا أخذته العزة بالإثم أنذر وتوعد وهدد فقال يـ " موسى " ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ

---

(١) وقيل إنه فى صغره قد أوذى فى لسانه ؛ والقصة مشهورة

بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾
(الشعراء: ٢٩ـ٣١)

هنا كان لابد من البرهان .. والمعجزة . . . والآية وإخراس اللسان الذى افترى على الله الكذب ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾(الشعراء : ٣٢ـ٣٣) كان السحر [1] هو العنصر الغالب على عقول الناس وأفهامهم ، وبه يؤخذون . . ، وعليه يعولون . . ، وبه بارعون، فلما رأى "فرعون" ما فعله "موسى" ـ عليه السلام ـ . . . وقال :

﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾(طه : ٥٧ـ٥٩) .

وتتابع المشاهد . .

إذ استقدم "فرعون" سحرته من كل مكان فى البلاد ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ﴾(طه : ٦٠ـ٦٣)

ثم ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ

---

(١) السحر : كل ما لطف مأخذة ودق ، وهو : خداع النظر .

إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ (طه: ٦٥-٦٩)

وأين السحر من المعجزة . . ؟!

لقد بطل ما كانوا يفترون . . . ، ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ (الأعراف: ١١٩ ١٢٢)

كشف الله عن قلبهم غشاوة الغفلة ، وأنارها بما خلق فيها من الهدى ، وأزاح عنها الغشاوة، وأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين !

وتلك كانت بداية النهاية لسلطان "فرعون" . . !

واستمرت المعجزة (العصا) فى يد "موسى" ـ عليه السلام ـ تؤدى دورها ، وما أعظمه من دور !!! لقد خرج بقومه "بنى إسرائيل" من "مصر" مشرقين . . . ، فتبعهم "فرعون" بجنوده وحشوده يريد أن يدركهم فيفتك بهم . . !

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (الشعراء: ٦١-٦٨)

واجه "موسى" ـ عليه السلام ـ ومن معه البحر فقال الناس : إنا لمدركون ، فالغرق فى اليم من أمامنا ، والعدو من ورائنا وإنها النهاية

. . ، قال "موسى" ـ عليه السلام ـ ﴿قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ وأُوحى إليه أن يضرب البحر بالعصا! ففعل . . ، فآنفلق الماء وافترق فرقين . . ، جبلين من الماء الجامد بينهما طريق يبس . . ، فسلكه "موسى" ـ عليه السلام ـ ومن معه حتى اجتازوه . . ، وتبعهم "فرعون" بجنوده فلما توسطوه أطبق عليهم الماء من كل جانب ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾(طه :٧٨) ، وغرقوا أجمعين .

(إن الفصول في قصة سيدنا "موسى" ـ عليه السلام ـ كثيرة ومتعددة وطويلة ، ولها خاصيتها التي يفرد لها الحديث ، وإنما نحن بصدد الكلام عن زوجته "صفورا" بنت شيخ "مدين" . . ، التي رافقته في تلك الأدوار منذ زواجه بها ، إلى إقامته عند أبيها ، ثم رحيلها معه إلى "مصر" ، وتلقيه الوحي وكلام الله تعالى له في برية "سيناء" عند جبل "الطور" في وادي "طوى" . . !

لقد كانت أول من آمن به وصدقته وواكبت معه الأحداث ، ولم يزد دورها عن ذلك ، إذ لم تشر كتب المؤرخين إليها لا من قريب ولا من بعيد ، حتى ولا كتب أهل الكتاب . . !

ولا ندري أيضاً متى كانت وفاتها وهل كانت قبل وفاة "موسى" ـ عليه السلام ـ أم بعده ؟ مع أهمية الوقائع والأحداث التي رافقت وجود "بني إسرائيل في أرض "سيناء" على مدى عقود من السنين . فترك ذلك إلى علم الله تعالى وحده)

﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ (البقرة: ٦٠)

بعد نجاة "بنى إسرائيل من بطش "فرعون" واجتيازهم البحر ، ونزولهم فى برية سيناء . . ، كانوا بحاجة إلى الماء . . ، يشربون ويسقون ماشيتهم . . ، وإلا هلكوا !!! فأوحى الله تعالى إلى عبده ونبيه "موسى" - عليه السلام - أن يضرب بعصاه الحجر (صخرة من الصخور) فتشققت وانفجرت وتدفق منها الماء من اثنتى عشرة عيناً . . . ! بعدد الأسباط [1] ، فعلم كل سبط من "بنى إسرائيل ، مشربه ومن أين يستقى . كل ذلك برحمة من الله تعالى وفضل . . وهم يشهدون!!!!

وهنا يشد انتباهنا ، عقولنا وأفئدتنا ، التفاوت فى المضروب . . . بين البحر والصخر . . !!؟

البحر يجمد . . ! والصَّخْر يتفجر ويتدفق بالماء . . ! الماء الغزير العذب . . !

وأيضا : العدد . . !

فالله تعالى الذى قدَّر فى كل مخلوق موجود خاصيتهُ هو وحده الذى يعطل تلك الخاصية ، أن يحولها - بآية منه - سبحانه - ، ولقد كانت العصا تلك الآية . ومن عجب أن "بنى إسرائيل" الذين عاينوا ذلك ، ورأوا الآيات بأبصارهم ظلت بصائرهم فى نجّوة عن الحق ؛ لقد زاغوا فأزاغ الله تعالى قلوبهم ، ووقعوا فى الفتن يردف بعضّها بعضاً . . !

طلبوا استبدال المن والسلوى [2] بالقثاء والثوم والعدس والبصل . . ، متعللين بأنهم لن يصبروا على طعام واحد . . !

طلبوا رؤية الله تعالى جهرة . . !!!

---

(١) السبط : ولد الولد ، وأسباط "بنى إسرائيل" هم ذرية "يعقوب" - عليه السلام - من أولاده الاثنى عشر وهم : " روبين "و "شمعون" و"لاوى" و"يهوذا" و"إيساخر" و"زبلون" و"يوسف" و"بنيامين" و"دان" و"نغتالى" و"جاد" و"أشير" .

(٢) المن : سائل أبيض حلو يتساقط من السماء على ورق الأشجار ، والسلوى : طائر السمان .

اتخذو العجل إلهاً لهم حين غاب عنهم " موسى " ـ عليه السلام ـ لميقات ربّه

رواغوا في ذبح البقرة . . . كما أوحى الله تعالى إلى " موسى " ـ عليه السلام ـ، ليتبينوا الحقيقة . . ، ويكتشفوا سر القتيل والقاتل ، . . ! فالحق أحق أن يتبع !! ولكنهم كانوا قوماً فاسقين .

تباطأ واوجبنوا عن بلوغ الأرض المباركة التي خرجوا منها . . . ، وقالوا لـ " موسى " ـ عليه السلام ـ ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ (المائدة : ٢٢)

آذوا نبيهم ورسولهم " موسى " ـ عليه السلام ـ واتهموه بعيب في جسده . . ! ولكن الله تعالى برأه ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ (الأحزاب : ٦٩)

وعندئذ ، وقد يئس " موسى " ـ عليه السلام ـ من صلاح قومه ، نادى فـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِى وَأَخِى فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَـٰسِقِينَ﴾ (المائدة : ٢٥)

واتهموه ـ أيضا ـ بأنه كان السبب في وفاة أخيه " هارون " ـ عليه السلام ـ ، بل ذهبوا إلى أبعد من ذلك بأنه قتله . . حسداً وغيرة ـ قاتلهم الله أنى يؤفكون .

وأدركت الوفاة " موسى " ـ عليه السلام ـ ولما يدخل الأرض المقدسة ، فسأل الله تعالى أن يدنيه منها بقدر رمية حجر ، ليراها . . ! فكان ما طلب ؛

ولقد روى "البخارى" فى صحيحه [1] عن "أبى هريرة" ـ رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ "أنه قال: (فلو كنت ثَمَّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الكثيب الأحمر) [2] .

---

(١) كتاب حديث الأنبياء (٣٢٢٦) .

(٢) المشهور أن ذلك فى صحراء النقب ، وليس هناك من مَعْلم يدل عليه .

زوجات "داود" ـ عليه السلام ـ

- "ميكال بنت طالوت "[1] الزوجة الأولى : إبنةملك "بنى إسرائيل"
- أرملة القائد "أوريا[2] " الزوجة الثانية للنبى "داود" ـ عليه السلام ـ
- هنالك زوجة ثالثة . . أُغفل ذكر اسمها وقصة زواجه ـ عليه السلام ـ منها . . . !
- أما السرارى فقد قيل إنهن بلغن مائة سرية . . . !! (والله أعلم)

ينتهى نسب سيدنا "داود" ـ عليه السلام ـ إلى "يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم " ـ عليهم السلام ـ وهو أول من جمعت له النبوة والمُلْك فى "بنى إسرائيل" .

---

(١) عند أهل الكتاب "شاوُل" وفى القرآن الكريم "طالوت" ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ (البقرة : ٢٤٧)

(٢) لم يذكر لها إسم ، .

خـرج "داود" ــ علـيه السـلام ـ وهـو غلام فى الثالثة عشرة من عمره يرعى أغنام أبيه ، ويرقب إخوته الذين خرجوا فى جيش "طالوت" الملك لقتال عدوهم "جالوت"[1] وجنده . . !

فلمـا تـراءى الجمعـان ، وظهر للعيان كثرة جند "جالوت" . . . قال أكثر أصحاب "طالوت" :

﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ . . لكن . .

. . . . . ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(البقرة: ٢٤٩)

وبـرَز "جالوت إلى الميدان يصول ويجول ويدعو إلى القتال ، فما جرُؤَ أحد من جُنْد "طالوت" على منازلته وقتاله .

فـتقدم "داود" ــ الغـلام ـ وقـال لــ "طالـوت" أنا أنازله وأقتله . . ، فأسـتقلّهُ "طالـوت" وسـخر منه . . ، فَأصرَّ "داود" وألح فى الطلب ، فسمح له "طالوت" مكرهاً ! !

وكـان "داود" بحكـم عمله فى رعاية الغنم يرمى بالمقلاع[2] و لا يخطئ إصـابة الهـدف ، وكـان يحمـل فى مخلاته القذائف : خمسة أحجار مُلْسٍ ـ إنتقاها من الوادى الذى كان يرعى فيه ؛

فلمـا بـرز لـ "جالوت" هزأ به "جالوت" وقال له : إرجع فإنى أكره أن أقتلك . . ! فأجابه "داود" : ولكنى أحب أن أقتلك . . !

ثـم جعـل الأحجـار فـى المقلاع وأداره فى الهواء بقوة فسمع له صوت كأنـه الـريح الصـافرة ، ثـم أطلقهـا فأصابت "جالوت" فى جبهته . . ،

---

(١) ملك الفلسطينيين ـ كما جاء فى "التوراة" .

(١) آلة تشبه النبلة .

وانفلقت رأسه . . وسقط قتيلاً ؛ وانهزم جيشه وفر جنده ؛ وانتصرت القلة المؤمنة على الكثرة المشركة الباغية .

وأراد "طالوت" أن يكرم "داود" فزوجه من ابنته الوحيدة "ميكال" وقربه منه وأدناه ، وأجرى حكمه فى مُلْكه ، وكانتَ الفتاة تقية صالحة ، ثم زوجة وفية برة ، فأخلصت لـ "داوَد" وأحبته ، وعاشت معه فى سعادة وهناء .

عظم أمر "داود" ومال إليه "بنو إسرائيل" فضعُفَ سلطان "طالوت" عليهم وأحس بأن ملكه يكاد يزول فَحقد على "داود" وأراد الخلاص منه، ودبر لذلك أكثر من مؤامرة . . . !

لكن "ميكال" كانت تقف إلى جانب زوجها "داود" تنبههُ وتحذره" ، وكذلك كان يفعل أخوها "يوناثان" الذى أحب "داود" حباً فائقاً ولازمه، وكان معه مثل ظله لا يفارقه .

واضطر "داود" أن يخرج إلى الجبال والوديان ، ويلجأ إلى الكهوف والمغارات هرباً من بطش "طالوت" . . . ، والتحق به نفر من أصحابه وأتباعه.

فى تلك البيئة الصافية النقية وبعيداً عن تضارب المصالح الدنيوية . . ، تعلق قلب "داود" ـ عليه السلام ـ بالله تعالى فآتاه النبوة ، وأنزل عليه المزامير ـ وسخر له الجبال والطير يسبحن معه، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب . . ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة . . !

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ (ص: ١٧ـ٢٠)

فـآزداد إقـبال " داود " ــ علـيه السـلام ـ علـى ربـه . . . بالطاعـة والعبادة . . . !

[كـان يـنام نصف الليل ويقوم ثلثه (للصلاة والتسبيح) وينام سدسه ، وكان يصوم يوما ويفطر يوماً ، ولا يفر إذا لاقى] [1] .

وآزداد إكـرام الله تعالى له فألان له الحديد ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ﴾(سـبأ : ١٠ـ١١) يعمـل مـنه الـدروع . . ، وقـد يسـره الله تعـالى لـه فكان فى يده كالشمع يصرفه كيف يشاء من غير إحماء ولا طرق . . !

وحاول " طالوت أكثر من مرة أن يوقع بـ " داود " . . ، فكان يخرج إليه بجـنده وسـلطانه حـيث يقـيم بـين الجـبال والوديان والكهوف ، ولكنه لـم يفلـح . . ، وعلـى العكس من ذلك فقد وقع " طالوت " بين يدى " داود " وتيسر له قتله وهو نائم ـ مرتين ـ ثم عفا عنه . . !

ولقد زاد هذ من حسد " طالوت " له وحقده عليه . . !

وكانـت " مـيكال " بـنت " طالـوت " وزوجـة " داود " خـير ناصـحة لزوجها ، وعينا يقظة له ترقب الأحداث والتحركات وتبلغه بها عن طريق أخيها " يوناثان "

ولـم يطـل الأمـر . . ، فقـد خرج " طالوت " لقتال الفلسطينيين . . ، فأوقعوا به وهزموه وقتل فى تلك المعركة . . ،

وقـدر لــ " داود " ــ علـيه السـلام ـ أن يكـون لـه الكـرة علـيهم ، والانتصـــار . . . والـتفاف الناس حـوله ، ثم ملكوه بدلاً من " طالوت " ملكـاً علـى بـيت " يهوذا " فى " حبرون " ـ الخليل ـ وهذه أول نبوة يجتمع إلـيها الملـك من عهد آدم ـ عليه السلام ـ . . . ! ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ

---

(١) من حديث لرسول ﷺ رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى وأحمد .

﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾(البقرة : ٢٥١)

ولم يقَّدر لـ "داود" ـ عليه السلام ـ أن يكون له ولد من "ميكال زوجته . . . !

وفى قصة زواج "داود" ـ عليه السلام ـ من أرملة القائد "أوريا" ، فـ "التوراة" تحكى قصة غريبة عجيبة ، وتلفق ـ وتشَوِّه . . . ! وهذا شأن "التوراة" مع أكثر أنبياء الله تعالى ،

"التوارة" تتناقض مع نفسها حين تشهد لـ "داود" بالغيرة الشديدة على أهله والبر والتقْوى وطهارة اليد [(١)] ثم تتهمه بتدبير حيلة للخلاص من القائد "اوريا" للوصول إلى زوجته ؛ والغيرة من الشهامة والألفة . . ، وتتوج ذلك النبوة . . ، فكيْف تَسْفُل به نفسه إلى الحيلة الدنيئة ؟!

تقول "التوارة" بأن "داود" ـ عليه السلام ـ (نظر وهو يمشى على سطح داره إلى امرأة تستحم فأعجبته وأغرم بها ، وأتى بها واضطجع معها فحملت منه وأعلمته ، وكان زوجها "أوريا" الحثيّ" فى الحرب .

فأتى به ليسأله عن أمر الحرب فى الظاهرَ ، وليحْدثَ الرجل بامراته عهداً حتى لايرتاب بأمرها إذا علم فيما بعد أنها حامل ، ولكن الرجل كان تعباً جداً ، فنام بباب "داود" ولم يزر امرأته لأنه من عدم التقوى أن يتمتَّع بزوجته وإخوانه فى الحرب بعيدون عن أزواجهم .

فلما علم "داود" بأمر ه ، لم ير وسيلة لعدم افتضاح أمره إلا تعريض "أوريا" لجبهة القتال حاملاً الراية ، وأن يتفرق عنه الجند بعد التقدم ، وبهذه الوسيلة قتل الرجل ؛ وأتت امرأته بولد فى تلك الزنية . . ،

---

(١) سفر "صموئيل" فى الاصحاح الثانى والعشرين وفى غيره من الأسفار .

وتـزوجها "داود" ، ثـم مـرض الـولد فحـزن "داود" لمرضه حزناً شديداً حتـى لا يقـدر أحد على تسرية همه ، ثم مات الولد - ومن هذه المرأة كان "سـليمان" !!!) تلكـم هـى قصـة "الـتوراة" عـن زواج "داود" - علـيه السلام - بأرملة "أوريا" و ولادة "سليمان" - عليه السلام - ابنها .

ويكفى سردها دون التعليق عليها . . !

فقـط نـريد قولاً واحداً : لم لا يكون زواج "داود" - عليه السلام - من الأرملـة الحـزين نـوعا مـن جـبر الخاطر . . ، كما كان يفعل صحابة سيدنا رسول الله ﷺ . . !!! والشواهد كثيرة لا حصر لها .

ولد لـ "داود" "سليمان" - عليهما السلام - . . . وشب وكبر . . !

وكـان فـى فـتوته بضـعة مـن أبـيه الذى أوتى الحكمة وفصل الخطاب يـروُون : (أن حرثاً - زرعا ، أو كرماً تدلت عناقيده ، نفشت فيه غنم لغير أهلـه ، أى أكلته ليلاً ، فجاء المتحاكمون إلى "داود" وعنده "سلميان" ، فحكـم "داود" بالغـنم لصـاحب الجـرن عوضـاً عـن حـرثه ، الذى اتلفته الغنم ، بَرعْيها إياه ليلاً فقال "سيلمان" - وكان ابن إحدى عشر سنة : غير هـذا أرفـق يا أبى تأمر بدفع الغنم إلى أهل الحرث ينتفعون بألبانها وأولادها وأشـعارها ، والجـرن إلى أهل الغنم يقومون عليه حتى يعود كما كان ، ثم يـــــترادّان . . ! ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(الأنبـياء : ٧٨-٧٩) .

وأخـذ "داود" بـرأى "سـليمان" - علـيهما السـلام - وحكمـه وأمضاه . . . !

ويحدثـنا أبوهريرة - رضى الله عنه - عن رسول الله ﷺ عن وفاة "داود" - علـيه السلام - ، قـال ﷺ : (كـان "داود" - علـيه السلام - فيه غيرة

شـديدة، فكـان إذا خـرج أغلق الأبواب ، فلم يدخل أحد على أهله حتى يرجع .

فخـرج ذات يـوم وغلقـت الـدار ، فأقبلت امرأته تطّلع إلى الدار ، فإذا رجـل وسط الدار ، فقالت لمن فى البيت : من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة ؟ والله لنفضحن بـ "داود" .

فجـاء "داود" فإذا الرجل فى وسط الدار ، فقال له "داود" : من أنت ؟ فقـال : أنا الذى لا أهاب الملوك ولا يمتنع منى الحجّاب ، فقال "داود" : أنـت والله إذن ملـك المـوت . . . مرحـباً بأمـر الله . . ، ثـم مكـث حـتى قبضـت روحـه ، فـلما غسـل وكفن وفرغ من شأنه وطلعت عليه الشمس فقـال "سـليمان" ـ عليه السـلام ـ للطـير : أظـلى عـلى "داود" فأظلتْ عليهم الطـير حـتى أظلمـت عليهم الأرض ، فقـال "سـلميان" للطير : إقبضى جناحاً)

قـال "أبوهريرة" فطفق رسول الله ﷺ يرينا كيف فعلت الطير ، وقبض رسول الله ﷺ بيده ، وغلبت عليه يومئذ المضرحية .

(فى مراجعة تاريخية لحياة "داود" ـ عليه السلام ـ وقفت على الآتى :

وأبناء "داود" هم :

(أمنون) أنجبه من امرأة إسمها (أضينوعم) اليزرعلية .

(دانيال) من امرأة إسمها (أبيجايل) الكرملية .

(أبشلوم) من (مقلة) بنت (تلماى) ملك جشور .

(أودنياه) من (حجيت)

(شفطباه) من (أبيطال)

(يثرعام) من امرأته المسماه (عجلة)

وهـؤلاء الستة ولـدوا له فـى " حبرون " ـ مدينة الخليل ـ قبل جلوسه علـى العـرش فـى " أورشليم " التى ولد له فيها : (شمعا) (شوبا) (ناتان) (سليمان) أنجبهم من (بتشوع بنت عميئيل) [1]

ومن غير هذه الزوجة ولد له أيضاً أبناء ذكور هم :

(كـبجار) (اليشـامع) (ألـيفالط) (نوجـه)(نـافج) (يافـيع) (اليشاماع) الثانى ((إلياداع) (إلينلاط) الثانى

وفى أورشليم " أيضاً ولدت له ابنته (تامارا)

ويحتاط الراوية إن هؤلاء المذكورين هـم أبناؤه من الزوجات فقط ، وأنه لم يذكر أبناءه من (غيرهن [2])إ . هـ

---

(١) لعلها أرملة الضابط (أوريا)

(٢) يعنى السرارى .

"بلقيس"[1] ـ ملكة "سبأ"

زوجة "سليمان" ـ عليه السلام ـ

❖ عريقة الأصل والمحتد . . !

❖ ينتهي نسبها إلى "يعرب بن قحطان" جد العرب العاربة[2]

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ (النمل : ١٦)

عَلِّم منطق الطير والحيوان ، وسخرت له الريح رخاء يمطتى متنها إلى حيث أصاب . . ، وسخر الجن والشياطين يخدمون بين يديه؛ وأوتي من كل شيء إذ استجاب الله تعالى لدعائه ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾(ص : ٣٥)

وبالمقابل كان الشكر والطاعة وإخلاص العبادة ، وإحقاق الحق والعدل . . ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ

---

(١) قيل إسمها "تلقمة" و "بلقيس" لقب لها .

(٢) العرب : عاربة ومستعربة ؛ والعاربة أصل العرب ، والمستعربة من انتموا إليهم ، ومنهم سيدنا "إسماعيل ـ عليه السلام ـ .

وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(النمل : ١٩).

وقصة "سليمان" ـ عليه السلام ـ مع "بلقيس" "ملكة" سبأ فى "اليمن" تبدأ من حيث حشر "لسليمان" جنوده ، كل جنوده من الإنس والجن والطير والحيوان . . . !

وتفقد ـ عليه السلام ـ الطير ، فلم يجد الهدْهد فقال: مالى لا أرى الهدهد ؟ هل غاب عن العرض قصداً ، أم لعلة وعذر؟ فإن كانت الأولى لأعذبنه أو لأذبحنه قصاصا وجزاءً وإن كانت الأُخرى فسوف نرى . . . !

فمكث الهدهد غير بعيد ، لم يطل غيابه ، فلما حضر أظهر الطاعة ، والولاء ، واعتذر فقال: يا مولاى عرفت شيئاً لم تعرفه أنت ، ولم تحط به ، لقد كنت فى "سبأ" وجئتك منها بنبأ يقين ، يستحق اهتمامك . . ! وجدت امرأة تحكم القوم ، ذات سلطان وغنى ، ولها عرش عظيم . . . ، والأدهى من ذلك أنى وجدتها وقومها يعبدون الشمس ويسجدون لها من دون الله ، وذلك من ضلالة الشيطان لهم الذى زيّن لهم أعمالهم فصدهم عن السبيل القويم والصراط المستقيم . . ! كيف هذا يا سيدى!!! كيف لا يعبدون الله تعالى الذى يخرج الخبْء من السماوات والأرض ، ويعلم السرَّ والنجوى !!! إستمع "سليمان" ـ عليه السلام ـ للهدهد وقبل عذره بانتظار جلاء ليرى وقال له : سننظر أصدقت أم كذبت .

ثم حمله رسالة إلى هذه الملكة وقومْها؛ وأمره أن يبلغها لهم خفية . . ! حملها الهدهد وطار بها ، ثم دخل مخدع الملكة وألقى الكتاب على سريرها ، ثم انتظر ليرى ما يكوْن من رد فعلها .

ووجدت "بلقيس" الكتاب فوق سريرها فارتاعت ، ثم دعت كبراء دولتها إلى الاجتماع العاجل ، وعرضت عليهم الأمر للتشاور ، فقالوا

لهـا : نحـن كما تعرفين أصحاب قوة وبأس لانهاب شيئاً ولا نخشى التهديد والوعيد ، وعلى كل حال فمرجع الأمر إليك ، وعلينا الطاعة .

قالـت "بلقيس" ـ وكانت عاقلة حاذقة ـ : إعلمو أن الملوك إذا هاجموا بلداً دمروه وأفسدوه وأذلوا الناس بجبروتهم وسلطانهم .

وأرى أن نصـالح "سـليمان" ونداهـنه ، ونبعـث إليه بالهدايا ثم ننتظر الـرد . . . ! فوافقوها على تدبيرها . فلما جاءت "سليمان الهدايا ضحك سـاخراً وقـال : ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾(النمل : ٣٦)

وردَّ الهديـة مـع حاملها ، وأرسل ينذر "بلقيس" وقومها بالإقلاع عن عـبادة غـير الله ، وإلا فإنـه سوف يأتيهم بحشود وبجنود لا قبل لهم بها ولا قـدرة عـلى مقاومـتها ، ولسـوف يـبطش بهم بطشة كبرى . . . أو يأتون مسلمين ، معلنين التوحيد . . !

ثـم نـادى ـ علـيه السـلام ـ : ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ (النمل : ٣٨ ـ ٤٠)

وفـي لحظـة خاطفـة كـان عـرش "بلقيس" بين يدى "سليمان" ـ عليه السـلام ـ فلما رآه بين يديه وقد إستقرَ عنده قال ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل : ٤٠)

لقد أدرك ـ عليه السلام ـ بالعلم والإيمان اللذين أوتيهما أن الحكمة من ذلك كله هو آبتلاؤه وآختباره!! فقال ما قال فى ضراعة وإيمان وخشوع ويقين .

وفى تلك الأثناء كانت "بلقيس" قد غادرت "سبأ" فى موكب ملوكىّ وحاشية حاشدة ، من الكبراء والعظماء بعد أن ردت إليها هديتها . . !

لقد آثرت السلامة لبلدها وشعبها ، وبادرت بالقدوم إلى مملكة "سليمان" فى "بيت المقدس" معلنة ولاءها . . . ، ولم تدر ما حل بعرشها!!

وقبل وصولها قال "سليمان" ـ عليها السلام ـ لبعض أعوانه : ﴿قَالَ نَكِّرُواْ لَهَا عَرْشَهَا﴾ (النمل : ٤١) غيروا معالمهُ ومظاهره لـ ﴿نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ .

ودخلت "بلقيس" على سليمان " فىمجلس سلطانه وُحكمه وبعد إن استقر بها المقام ، ورحب بها على عادة الملوك ـ سئلتْ ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾؟؟

فنظرت ناحية العرش ـ وتفرستهُ ـ وتأملتة . . ثم ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ وقد دلّ ذلك على جهلها وبُعْدها عن الله ولو أنها دققت . . . ، لأيقنت بأن ما تراه هو عرشها الضائع . . . ، وقد استقر بين يدى "سليمان" ـ عليه السلام .

وسُجلت من بعد على "بلقيس" وملئها مواقف الجهل والضعف والتخاذل واحداً بعد الآخر بسبب كفرهم ثم كانت الخاتمة . .

قام سليمان ـ عليه السلام ـ من مجلسه ، وقامت ، ثم نهض الحاضرون فى إثرهم ـ واتجه الموكب إلى قاعات القصر الداخلية ، مروراً بالصَّرْح . . !

وكـاد مكـنا فسـيحاً ا رحباً ا ، وتحيط به الأروقة ذات الأعمدة وتأخر " سـليمان " ـ عليه السلام ـ فلما أرادت أن تضع قدمها على بلاط الصَّرْح كشفت عن ساقيها . . !

لقـد رأت انعكـاس مقـدم المـوكب علـى أرض الصـرح ، كمـا رأت انعكـاس الأعمـدة ورُواء المنظـر ، فظـنت الأرض لجـةً مـن المـاء الـرائق الصافى . . . !

فتبسم "سـليمان " ـ عـليه السلام ـ وقال ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ قد بلِّطت أرضه بالبلور الشفاف ، وليس ماءً كما خيل لك .

هنا . . . انهارت جاهلية "بلقيس " وغطرستها . . . وطأطأت رأسها أمـام العلـم الـذى وهـبه الله تعالى لنبيه "سيلمان " ـ عليه السلام ، وأمام القوة التي منحت له من البارى عز وجل .

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَـٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ (النمل : ٤٤)

وتـزوج "سـيلمان ـ عـليه السـلام ـ مـن "بلقـيس" ، وأعادهـا إلى "سبأ" ، وكان يأتيها بين الحين والآخر .

ولم تكـن "بلقـيس" هـى الـزوجة الوحـيدة . . . ، فقد قيل بإنه عليه السـلام ، كـان لـه أربعمائـة أمرأة (زوجة) وستمائة سرية ، ورد ذلك فى " توراة" أهل الكتاب .

كمـا ورد فـى الصـحيحين عـن " أبـى هريـرة " ـ رضى الله عنه ـ (أن سليمان بن داود كان له أربعمائة امرأة وستمائة سرية فقال يوما : لأ طوفن اللـيلة على ألف امرأة فتحمل كل واحدة منهن بفارس يجاهد فى سبيل الله ـ ولم يَسـتَثْن ـ فطاف عليهن ، فلم تحمل واحدة منهن ، إلا امرأة واحدة جـاءت بشقَ إنسـان ، فقـال النبـى ﷺ : (والـذى نفسـى بيده لو آستثنى

فقـال : إن شـاء الله ، لولـد له مـا قال فرسان ، ولجاهدوا فى سبيل الله عز وجل)

هـل ولـدت "بلقـيس" مـن "سـليمان"؟ يذكر أهل القصص وبعض المفسـرين أن "بلقـيس" ولـدت لـ "سليمان" ـ عليه السلام ـ ولدا واحداً كما يزعم ملوك "الحبشة" أنهم أحفادُ "سليمان" من هذا الولد .

"إلياصابات"[1]

- زوجة " زكريا " عليه السلام
- هى أخت حنّة ـ أم " مريم " ـ عليها السلام
- لذلك قيل تجوزًا عن " يحيى " و " عيسى " عليهما السلام : إبنا الخالة
- لم : يلد سوى " يحيى " بعد عقر طال زمناً[2] .
- ولقد سُمّى من قبل الله تعالى ، ولم يكن الاسم معروفا من قبل[3] .

كان زكريا ـ عليه السلام ـ من خدام الهيكل فى " بيت المقدس " وكذلك " عمران " والد " مريم " عليها السلام وهؤلاء كانوا أمناء على الشريعة وينتهى نسبهم إلى " لاوى ابن يعقوب " عليه السلام و " لاوى " هو أحد الأسباط الأثنى عشر .

---

(1) (أليزابيث) باللغات الأجنبية . وقيل اسمها "اشياع" ، والأشهر الأول.
(٢) ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ (مريم : ٥).
(٣) ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾(مريم : ٧) .

تقـدمت بـه السـن حتـى جـاوز السـبعين مـن عمـره [1] ، ولـم يـنجب . . . ، إذ كانـت زوجـته "الياصابات" عاقرا . . . ، وكان عليه السـلام يتمنـى الـولد ليرثـه فى القيام بمسئولية الأمانة على الشريعة فى "بنـى اسـرائيل" الـذين كثـر انحـرافهم وضلالهم . واشتد حنانُـة هذا حـين وضـعت "حـنة" أم "مَـرْيَمَ" ـ عليـها السـلام ـ . . . ، وكانت "حنة" لشدة تقواها قد نذرت ما فى بطنها لخدمة الهيكل . .

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾

(آل عمران ٣٥ ـ ٣٧)

وكـان "عمـران" والـد "مـريم" قد توفى فاقترع ذوو الرحم أيهم يكفـل مـريم !؟ والخالة بمنزلة الأم كما روى عن سيدنا رسول الله ﷺ ، والياصـابات اخـت "حـنة" . . . و"زكـريا" ـــ علـيه السـلام ـ زوجهـــا . . ، فخـرج بالاقتراع سهم زكريا فكانت له الكفــالة ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ (آل عمران ٣٧) .

فقـام ـ عليـه السلام ـ بواجب الرعاية والعناية ، وكذلك زوجته ـ خالتها ـ!

---

(١) وفى رواية سبعة وسبعين سنة ـ والله أعلم .

وكان دائم التفقد لها ، بكرة وعشيا . . ، يحمل إليها المتاع والطعام ولم تكن بحاجة إلى المأكل والمشرب إذ كان يرى عندها ما يكفيها ، فظن أن أحدا غيره يأتيها به ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (آل عمران ٣٧) .

عندها تيقظت في نفس زكريا ـ عليه السلام ـ دوافع الحسرة على الولد ، وحبه للذرية ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ (آل عمران ٣٨) .

واستغرق ـ عليه السلام ـ في الصلاة والدعاء والمناجاة ، واستجاب الله تعالى لنداء عبده زكريا ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (آل عمران ٣٩) .

وبين التصديق والرجاء طافت نفس زكريا فقال ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ (آل عمران ٤٠) .

﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن

وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبۡ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا
٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيًّا
٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل
لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيًّا ٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ
وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيًّا
٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ
مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـًٔا﴾

(مريم : ١-٩)

وطلب زكريا من الله تعالى أن يجعل له آية وعلامة على استجابته للدعاء، فأجابه المولى عز وجل ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾(مريم : ١٠)

أى : علامة ذلك أن يعتريك سكت لا تنطق معه ثلاثة أيام إلا رمزا وأنت فى ذلك سويّ الخلق صحيح المزاج ، معتدل البنية .

عندئذ خرج زكريا ـ عليه السلام ـ من المحراب مسرورا ، يفيض رضى ، وأوحى إلى قومه أن سبحوا الله تعالى وقدسوه .

وانقطع عقم "الياصابات" فحملت بيحيى ـ عليه السلام ـ ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ (الأنبياء : ٩٠) وتم أمر الله تعالى .

نساء النبى (صلى الله عليه وسلم)

١ـ خديجة بنت خويلد

٢ـ سودة بنت زمعة

٣ـ عائشة بنت أبى بكر

٤ـ حفصة بنت عمر

٥ـ زينب بنت خزيمة (أم المساكين)

٦ـ هند بنت أبى أمية (أم سلمة)

٧ـ زينب بنت جحش (الأسدية)

٨ ـ جويرية بنت الحارث (المصطلقية)

٩ـ صفية بنت حُيَىّ (بن أخطب)

١٠ـ رملة بنت أبى سفيان (أم حبيبة)

١١ـ ماريةُ القبطية

١٢ـ ميمونة بنت الحارث (الهلالية)

١٣ـ ريحانة بنت شمعون

(رضى الله عنهن)

كلمة لا بد منها

قبل أن نخوض فى الحديث عن زوجات سيدنا رسول الله ﷺ وقبل الشروع فى الكلام عن الظروف التى رافقت زواجه ﷺ لكل منهن ، لا بد من جلاء شبهة اندست فى غفلة من الوعى إلى نفوس وعقول كثير من الناس ، ورددوها كالببغاوات ، وفحواها أنَّ محمداً ﷺ كان عنده شبق إلى النساء . . !؟

وهذه وسوسة من المستشرقين ، افتروها على النبى الخاتم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ولو أنصفوا لما قالوا ذلك .

ذلك أنهم لو رجعوا إلى توراتهم لتبين لهم أنهم كما قيل (رمتنى بدائها وانسلت)!! فأين عدد نسائه ﷺ من أزواج من سبقه من الأنبياء والمرسلين وسراريهم !!؟ "داود وسليمان" عليهما السلام مثلاً . . !!!

ومعاذ الله تعالى أن نطعن فى ذلك ، وما يجوز لنا أبدا ، وما نحن بالذى نقيِّمه ولكنه الرد على الفرية ومقتضى المنطق .

أضف إلى ذلك افتراءاتهم على أنبيائهم بالتهم التى لا تستوى أبداً مع قدسية الأمانة ومسئولية النبوة والرسالة ، كالحيلة والغدر وغيرهما .

وتقـول السـيدة الدكـتورة بنـت الشاطئ[1] ـ رحمها الله تعالى ـ:

(المستشـرقون لم يـروا فـى هـذا الجمع بين عدد من النساء ، لزوج واحـد ، سـوى مظهـر ماديـة مسـرفة ، وإنه لضلال أملاه التعصب الأحمـق والهـوى المضـل وانحـراف عن المنهج العلمى الذى يأبى أن نقـيس مسـألة تعـدد الـزوجات بمقايـيس عصرية مستحدثة أضرَّتْ بالمرأة والأسرة والمجتمع ، من حيث يظن بها مصلحة منصفة .

وهـذا الغـرب لا يجـرؤ الـيوم عـلى أن يدعـى أن نظـام الزوجة الواحـدة يتـبع فـى دقة ، وينفذ نصا وروحا ، ومع هذا يأتى بعض أبـنائه فيـنكرون فى جرأة تعدد الزوجات فى بيئة قد كان التعدد هو نظامهـا السـائد الـتى لا تعـرف سـواه إلا فى حالات قليلة ولدواع خاصـة ، ولـم يكـن هـذا الـنظام اختـياريا ، وإنمـا قضت به طبيعة الزمان والمكان ، فى مجتمع كان البنون فيه زينة الحياة الدنيا .

وربمـا بدا لنا اليوم أن ذلك التعدد كان مظهرا من مظاهر استعباد المـرأة العربية ورقها المزعوم ، وأنه قصد إلى إرضاء الرجال ، ولكنه ـ فـى الحق ـ كثيراً ما ألقى على الرجال عبئاً ثقيلاً مرهقاً وأنقذ المرأة العربـية مـن نظـام أبشع من التعدد ، وهو هذا الرِّق العصرى الذى يعـترف لـزوجة واحدة بشرعية الزواج ويدع لغيرها ـ ممن يعاشرهن الزوج فى الحرام ـ الضياع والهوان والعار ، ويرهق الإنسانية بمورد لا ينقطع من أولاد الحرام ، المنبوذين اللقطاء إ ـ هـ

(١) الدكتورة "عائشة عبد الرحمن" (سيدات بيت النبوة : ص ٢٠٦)

"خديجة بنت خويلد" (رضى الله عنها)"

- ❖ أول أمهات المؤمنين.
- ❖ وأم الذرية الطاهرة.
- ❖ كانت ذكراها فى قلبه وعلى لسانه ﷺ دائماً
- ❖ فتقول - عائشة - رضى الله عنها لرسول الله ﷺ
- ❖ (ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين، هلكت فى الدهر ، ابدلك الله خيرا منها !! فيجيبها ﷺ غاضباً . . " والله ما أبدلنى الله خيرا منها آمنت بى حين كفر الناس وصدقتنى إذ كذبنى الناس وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء) [1]

هى : خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى - الأسدية القرشية - يتصل نسبها برسول الله ﷺ بجدهما " قصى " [2].

---

(١) الاستيعاب لـ "ابن عبد البر" (ح : ٢٤٣٧) و "السِّمْطُ الثمين" للمحب الطبرى"

(٢) قصى : الذى بنى دار الندوة لقريش .

تـزوجت (خديجـة) قـبل رسـول الله ﷺ باثـنين مـن سادات العرب وأشـرافهم همـا : "عتـيق بن عائذ بن عبد الله" ـ المخزومى ـ و "هنـد ابـن زرارة التميمـى" ــ أبـى هالـة " [1] وكلاهمـا ماتا وتركا لها إرثاً عظيما ومالاً وفيرا .

فكانـت تديـر ثـروتها بنفسـها ، تسـتأجر الرجال وتبعثهم بالقوافل المحملـة فـى رحلتـى الشـتاء والصـيف ، كانت عاقلة حازمة ، سامية الخلـق ، حتى عرفت فى مكة بـ "الطاهرة" ، يحترمها الجميع ويقدرون منزلتها .

عـندما بلـغ سـيدنا رسـول الله "ﷺ" الخامسـة والعشرين من عمره الشـريف ، كـان لا يـزال يعمـل فـى رعاية الأغنام على قراريط لبعض رجال من قريش ، وقد خرج فى أكثر من رحلة مع عمه ابى طالب إلى "الشـام" فهو يتقن أصول التجارة بيعا وشراء ، وكان لا يزال يقيم فى بيت عمه "أبى طالب" .

فقـال لـه عمـه ذات يـوم : (يا ابن اخى ، انا رجل لا مال لى ، وقد اشـتدت علينـا وألحّـتّ سنون منكرة ، وليس لنا مال ولا تجارة ، وهذه عـير قـومك قـد حضـر خـروجها إلى الشـام ، وخديجـة تـبعث رجالاً يتجـرون فـى مالها ويصيبون منافع ، فلو جئتها لفضلتك على غيرك لما يـبلغها عـنك مـن أمانـتك وطهارتـك وإن كـنت أكـره أن تأتى الشا م

---

(١) يقال انه ولد منها ابنتهما (هالة) .

وأخـاف علـيك مـن الـيهود ، وقـد بلغنـى انهـا أسـتأجرت " فلانا " بيكرين[1] ولسنا نرضى لك بمثل ما أعطته فهل لك أن أكلمها ؟؟) .

فأجابه ﷺ (ما أحببت يا عم . . .) وقبل رسول الله ﷺ ، وقد وعدته السيدة ـ خديجة ـ أن تعطيه ضعف ما تعطى غيره من الرجال ، وانتظم ﷺ فـى ركـب القافلـة ، التى أدت مهمتها بنجاح منقطع النظير وربحت ربحـاً عظـيما ، ولمـا عادت إلى مكة وكان غلامها ـ وكيلها ـ " ميسره " معجـباً شـديد الاعجاب بما رآه من سيدنا محمد ﷺ فى حسن تعامله مع التجار وصدقه وأمانته .

ولقـد حدث سيدته بذلك . . مما أثار فى قلبها الميل إليه والاعجاب بـه ، لكـنها لـم تفـاتح بذلك أحداً ، سواء من أقربائها أو أصدقائها أو صديقاتها .

اللـهم إلا ما كان من " نفيسة بنت منية " وكانت من أقرب المقربات إلـيها . رأت نفيسـة فـى عينـى " خديجـة " حيره وتردُّداً ، فمازالت بها تـراودها حتـى أفصـحت لهـا ، وذكـرت " محمـدا " ـ الأمين ـ ﷺ بخير فهـونت علـيها " نفيسـة " الأمر ، ووعدتها ، ومن ثم مضت إلى سيدنا " محمد " ﷺ تقول : له ما سبب عزوفك عن الزواج ، وهلا سكنت إلى زوجة تحنو عليك وتؤنسك وتزيل وحشتك ؟ .

---

(١) يقال : بكر وبكِر وهو الفتيُّ من الأبل .

فاعـتذر ﷺ بقلـة ذات يـده وقـال : ما بيدى ما اتزوج به ، فقالت له نفيسـة : فـإن دعيـت إلى الجمـال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب ! ؟ فاستفسر فإذا هى ـ خديجة ـ ، فوافق من غير تردد .

وجـاء إلى بيـتها أعمامـه : (أبـو طالـب ـ والعبـاس ـ وحمـزة) خاطـبين، وكان عندها عمها (عمرو بن أسد بن عبد العزى بن قصى) فقال أبو طالب شيخ بنى هاشم : (أما بعد فإن محمدا لا يوزن به فتى من قـريش إلا رجـح بـه شـرفا ونبلاً وفضلاً وعقلاً ، وإن كان فى المال قلٌ فإنما المـال ظـل زائل وعارية مسترجعة ، وله في "خديجة" بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك).

فأثـنى عمهـا "عمرو بن أسد "على سيدنا "محمد "ﷺ وقبل الخطبة والـزواج وأنكحهـا مـنه ، وكـان الصداق اثنتي عشرة اوقية أو عشرين بكرة[1]

كـان عمـر "خديجـة " يومـئذ اربعـين سـنة ، وعمر سيدنا محمد ﷺ خمسـة وعشرين ، وهذا الفارق السنى لا نعوِّل عليه ، فقط نقول : كان هذا الزواج اقتران عقل راجح إلى عقل راجح وخلق إلى خلق .

أقبلـت " خديجة "رضى الله عنها ـ على سيدنا محمد ﷺ إقبال الزوجة الصـالحة والأم الحنون ، وأقبل عليها يقدرها ويحترمها ، ويفيض عليها من خلقه العظيم .

ومـرت الأعـوام . . وتـتابع عـلى ـ خديجـة ـ الحمـل والولادة ، ورزق مـنها سيدنا محمد ﷺ باثنين من البنين هما : " القاسم " الذى كان

---

(١) هذه المقادير لا نستطيع تحديدها اليوم .

بـه يكنـى ـ و "عـبد الله" ، ولكـنهما لـم تطـل بهما الحياة ، فقد ماتا فى شـهورهم الأولى [١] ، ثـم بأربعـة مـن البـنات هـن : ("زيـنب" و"رقـية" و"أم كلثوم" و"فاطمة الزهراء") ـ رضى الله عنهن ـ وكانت ولادة فاطمة قبل البعثة بخمس سنوات.

عـندما شارف سيدنا محمد ﷺ سن الأربعين حبب إليه الخلاء ، ألف الخلـوة فـى غـار حـراء ، واسـتطابت نفسه أن يبتعد عن الناس ، ليس هجـرا لهـم واستيحاشـاً منهم ولكـن بعـداً عن جاهليتهم فى وثنيتهم ونفورا من مظالمهم وتأبياً لسلوكهم

ولـم تكـن "خديجـة" ـ رضـى الله عـنها ـ لـتعترض أو تمـنع ، بل كانـت تشـجعه علـى ذلك ، وتوافقه وتهيئ له الزاد أو تبعث به إليه إذا طال غيابه ـ أياما وليالى ، وأيضا كانت تبعث من يطمئنها عليه .

وكانـت إرهاصـات النبوة فـى واحد من ذرية "إسماعيل" ـ عليه السـلام ـ تـتردد عـند العـرب فـى مخـتلف ديارهم وبقاعهم ، حتى إن بعضـهم كـان يرى جدارته بها ، فكانوا يقومون برياضاتهم الروحية ، لعلهم يظفرون وقد عرفوا بالمتحنفين ـ أى الذين مالوا عما عليه قومهم فـى سوء العقـيدة وفساد السلوك . ولكن ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام : ١٢٤)

حتـى كانـت (لـيلة القدر) التى هزت وزلزلت كل كيان ، حتى إن قلـب المصـطفى ﷺ رجف لها . . ! فما بالك بأفواج ومواكب الملائكة ـ

---

(١) فى ذلك حكمة لا يعلمها إلا الله .

علـيهم السـلام ـــ يتنـزَّلون ـ بأمـر الله ، مـن السـمـاء إلى الارض وقـد أشـرقت بـنور ربها ، يتقدمهم الروح الأمين "جبريل" ـ عليه السلام ـ ليقول لسيدنا رسول الله ﷺ (أقرأ) ، ويبلغه الاختيار بالرسالة والنبوة ، وصدق من قال : إنها ليلة محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .

تقول أستاذتنا الدكتورة (بنت الشاطئ) رحمها الله تعالى :

(فمـا نزل عليه الوحى فى ليلة القدر وهو فى غار حراء حتى انطلق يلـتمس بيته فى غبش الفجر ، خائفاً شاحباً مرتعد الأوصال ، وإذ بلغ حجـرة زوجته أحس أنه وصل مأمنه ، فحدثها بصوت مرتجف عن كل ماكان ، ونفض لديها مخاوفه) .

ولـو شئنا أن نستطرد لزدنا عمّا تقوله بنت الشاطئ فى وصف حالته التـى عاد بها رسول الله ﷺ من غار حراء إلى مكة ، ولقد أطنب فى ذلك كتاب السيرة والمؤرخون وعلماء التفسير وغيرهم .

والـذى يهمـنا قوله أن الزوجة "خديجة" ـ رضى الله عنها ـ بما ركب فـى سـجيتها مـن صفات وعاطفة ورجاحة عقل حملت نصيبا من بركة تلك الليلة وعظمتها .

فلما أتاها رسول الله ﷺ وحدثها حديثه قالت فى ثقة وطمئنان :

(الله يـرعانا يـا أبـا القاسـم . . ابشـر يـا ابـن عـم واثـبت فـوالذى نفـس "خديجـة" بـيده انـى لأرجـو ان تكـون نبـى هذه الأمة ، والله لا

يخـزيك ابـدا . . انـك لتصـل الـرحم وتصـدق الحـديث وتحمل الكَلّ وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق)[1]

هدّأت من روعه وثبتته . . !

ثـم انطلقـت إلى ابـن عمهـا (ورقـة بـن نوفل) ، وكان من حكماء الجاهلـية ، عـزف عـن عـبادة الأوثـان ، وقرأ كتب أهل الكتاب ، ثم تنَّصـر ، فأخـبرته بمـا كان من أمر سيدنا رسول الله ﷺ فانتفض " ورقة " وقال :

(قـدوس . . قـدوس . . ، والذى نفس " ورقة " وبيده ، لئن كنت صـدقتنى يـا " خديجـة " ، لقـد جـاءه الـناموس الأكبر الذى كان يأتى " موسى " و " عيسى " وإنه لنبيٌّ هذه الأمة ، فقولى له فليثبت)[2] .

وعـادت إلى البـيت وكـان ﷺ مـا يـزال نائما ، فلما استيقظ اخبرته بمقـولة " ورقـة " ، فنظـر ﷺ إلى فراشه وقال : (انتهى يا " خديجة " عهد النوم والراحة ، فقد أمرنى " جبريل " ان أنذر الناس ، وأن أدعوهم إلى الله والى عبادته ، فمن ذا أدعو ؟ ومن ذا يستجيب ؟) .

وكانت ـ رضى الله عنها ـ أول الناس إسلاما وايمانا .

وطلـبت إلـيه أن يذهبا سويا إلى " ورقة " فلبى طلبها فلما أطلا على " ورقـة " وكـان شـيخا هـرما طاعـنا فـى السـن ، على شفا حفرة من الموت ، صاح مستبشراً :

---

(١) السيرة والروض الأنف وتاريخ الطبرى وعيون الأثر والإصابة والسمط الثمين

(٢) الحديث من الصحيحين عن " عائشة " رضى الله عنها .

(والـذى نفسـى بيده إنـك لنبى هذه الأمة ، ولُتكَذَّبَنّ ، ولُتؤذَيَنّ ، ولـتخرجن ، ولـتقاتلن ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه)

وقبّل رأس رسول الله ﷺ

فقـال له ﷺ : (أومخـرجيَّ هـم ؟)قـال " ورقـة " : نعم . . ، لم يأت رجـل قـط بمـثل ما جئتَ بَه إلا عودى به ، ليتنى فيها جذعاً (شابا فتيا) ليتنى أكون حيا[1] . ومرت سنوات ، وقفت فيها الزوجة المحبة الوفية إلى جانـب زوجها النبى الرسول ﷺ ، تنصره وتشد أزره ، وتثبته وتعينه عـلى احـتمال أقسى صنوف الأذى والمحن والشدائد ، وتنفق من مالها فى سبيل الله ، لا تبتغى إلا رضى الله تعالى ورضوانه .

وفـى مرة من مرات الوحى ، وقد انفصم عنه ، أخبرها النبى ﷺ أن ـ " جـبريل " ـ علـيه السـلام ـ يبلغها السلام من الله تعالى ، فقالت : منه السلام وإليه يعود السلام .

وبلغـت خديجـة ـ رضى الله عنها ـ سن الخامسة والستين ، وكانت قـد قضت السنوات الثلاث الأخيرة فى الحصار ، الحصار الذى فرضته قـريش عـلى المسلمين وبنى هاشم وبنى المطلب فى شعب أبى طالـب ، سـنوات عجـاف ذاقـوا فـيها أشـد أنـواع الـبلاء ، فصبرت واحتملت ولكنها سقطت فريسة للمرض .

وسبقها إلى الآخرة " أبو طالب " شيخ بنى هاشم وعم النبى ﷺ .

---

(١) صحيحي البخارى ومسلم وتاريخ الطبرى وكتب السيرة

وبعـد أيـام ثلاثة لحقت بربها ، وكان رسول الله ﷺ يقف عند رأسها يواسـيها ويخفـف عـنها وعيناه الشريفتان مغرورقتين بالدمع حزنا على فراقها، ولا يملك إلا أن يقول لها ما بلغه إياه "جبريل" ـ عليه السلام ـ (إن الله يبشرك ببيت فى الجنة من قصب لا نصب فيه ولا وصب)(١)

وفارقت الدنيا وبسمة الرضى لا تفارق ثغرها ، ودفنت بالحجون . كانـت وفاتهـا قـبل الهجـرة بثلاث سنين ، فى أوائل شهر رمضان من ذلـك العـام ، الـذى سمـى بعـام الحـزن . رضى الله عنها وأرضاها ، وأكـرم فـى الجـنة مـثواها مـع النبـيين والصدقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

---

(١) القصب : اللؤلؤ المجوف ، والنصب : التعب ، والوصب : المرض

سودة بنت زمعة (رضى الله عنها)

- ثانية أمهات المؤمنين .
- من مهاجرات الحبشة ، ومن السابقات إلى الإسلام
- رعـت بيـت النبوة بعد " خديجة " وحنت على البنات : أم كلثوم وفاطمة : : لها من اسمها نصيب إذ كانت شديدة السمرة . . !
- أما قلبها فكان أشد بياضا من الثلج وأصفى من الماء .

هى (سودة بنت زمعة بنت قيس بن عبد شمس)ـ القرشية العامرية ـ وأمهـا " الشمسـوس بنـت قيس بن زيد " الأنصارية من بنى (عدى ابن النجار) ـ أخوال رسول الله ﷺ .

أسـلمت ـ سـود ة ـ رضى الله عنها ـ مبكرة ثم هاجرت مع زوجها " السـكران بـن عمـرو بـن عـبد شمـس " ـ ابن عمها إلى الحبشة مع من هاجـر من المسلمين ، بإذن رسول الله ﷺ حين ضاقت عليهم الأرض بما رحبت جرّاء ما لقيه أولئك من عذاب وفتنة .

فكانـت الهجرة والبعد عن الأهل والوطن محنتها الأولى . ثم ما لبثت أن تأيَّمــتْ ، إذ مات عنها زوجها ، فكانت محنتها الثانية ، كل ذلك فى سـبيل الله تعالى . وحين نمى إلى المهاجرين خبر إسلام (عمر بن الخطاب ـ رضـى الله عـنه ـ) رجـع بعضـهـم إلى مكـة اعـتقاداً منهم بأنهم سوف يمنعون ، وعادت " سودة" مع من عاد.

عـادت إلى بيـت أبـيها "زمعـة "وكان شيـخا كبيرا ، أقعده الضعف عن السعى ، فأقامت معه ترعاه فى شيخوخته وتحنو عليه وتصبر.

وبعـد وفـاة" خديجـة " ـ رضـى الله عـنها ـ خلا بيت النبوة من سيدة تـرعى شـئونه ، وفقـد رسـول الله ﷺ الصدر الحنون الذى كان يستريح اليه ، والقلب الكبير الذى كان يبثه شكواه .

وكـان الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ يرون ذلك فيشفقون ويتمنون لو أن رسـول الله ﷺ تـزوج ولكـن لم يجـرؤ أحـدٌ منهم على مفاتحته ﷺ فى هذا الأمر.

حتى جاءته يوماً "خولةُ بنت حكيم "(1) ـ رضى الله عنها ـ فقالت :

(يا رسول الله كأنى أراك قد دخلتك خلّةٌ لفقد "خديجة "!!)

فقال ﷺ : (أجل كانت أم العيال وربّة البيت)

سكتت قليلا . . ثم قالت : ألا تتزوج !؟

فقال : (ومن بعد" خديجة "!؟)

وأيضا سكتت قليلا ثم قالت :

---

(1) زوجة عثمان بنت مظعون

إن شئت بكراً وإن شئت ثيباً

قال ﷺ : من البكر ومن الثيب؟

فقالت : البكر بنت أحب الناس إليك "عائشة بنت أبى بكر" والثيب "سودة بنت زمعة"

وفكر (ﷺ) برهة ثم قال : اما "عائشة" فهى ما تزال صغيرة[١] .

فقالت خولة : تخطبها الآن وتنتظرها حتى تنضج .

وإلى أن تنضج لا بد من سنوات . فمن يرعى شئون الأسرة؟

فقال (ﷺ)، وقد تذكر حال "سودة" : هجرتها وترملها ، وسبقها وإيمانها وخبرتها :-

أخطبينى عليهما

وتمت خطبة "عائشة" وتم الزواج من "سودة" ، التى دخلت بيت النبوة أمّاً ثانية للمؤمنين .

جاءت "خولة" الى "سودة" تقول لها :

ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة يا "سودة"؟

قالت : وماذا يا "خولة" ؟

قالت : أرسلنى رسول الله (ﷺ) أخطبك اليه .

وكادت الدهشة والتعجب يعييانها عن الكلام ، ثم قالت فى فرحة : وَدِدْتُ . . : أدخلى على أبى فأذكرى له ذلك .

فدخلَت "خولة" عليه وهو شيخ كبير ـ قد تخلف عن الحج[٢] فحيته ثم قالت :

---

(١) كانت فى السابعة من عمرها

(٢) كانت الأيام أيام موسم

إن "محمد بن عبد الله بن عبد المطلب" أرسلني أخطب عليه "سودة".

فصاح الشيخ: كفؤ كريم . . . ، فماذا تقول صاحبته؟

قالت "خولة": هى تحب ذلك

فاستدعاها وسمع منها ، ثم طلب إلى "خولة" أن تدعو إليه "محمداً" (ﷺ) وهكذا تمت الخطبة وتم الزواج.

ولم تكن "سودة" - رضى الله عنها - بمن يشتهى من النساء إذ ليست بذات جمال ، وقد أسنّت ، ولم تكن أيضا ممن يستطعن تعويض الحنان لبنات النبى (ﷺ) عن أمهن "خديجة" ، بل من الذى يسد هذا الفراغ!؟

فقط كان سيدنا رسول الله (ﷺ) يريد جبر خاطر هذه المرأة التى أسلمت مبكرة وتحملت ، وهاجرت وتعذبت ، وترملت وفقدت الزوج.

وصدق الله العظيم ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨)

ودخلت "سودة بنت زمعة" بيت النبوة ، وأدركت منذ اللحظة الأولى مكانتها ومقامها ، وعرفت أنها إنما تزوجت من "محمد" الرسول وليس "محمداً" الرجل ، فقلبه (ﷺ) معلق بحب الله تعالى والدعوة والرسالة ، وإن عواطفه ومشاعره ليست ملكه إنما هى للمسلمين عامة ، وإن ذكر "خديجة" - رضى الله عنها - ما تزال تشغل حيزاً فى نفسه الشريفة.

أدركـت "سـودة" كل ذلك بحكم السن والتجربة ، فرضيت بذلك قانعة .

ولـيس أدل علـى ذلـك مـن خلال جوابها رسول الله (ﷺ) يوم أراد فـراقها : (والله ما بى على الأزواج من حرص ، ولكنى أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجاً لك) كانت ـ رضى الله عنها ـ بدينة ثقيلة الجسم .

وتحدثـنا " عائشـة " ــ رضـى الله عـنها ـ فـتقول : (اسـتأذنت " سـودة " رسـول الله (ﷺ) ليلة " المزدلفة " أن تدفع قبل حَطَمةِ الناس ، وكانت امرأة ثبطة [1] فأذن لها) .

وكانـت بهـا دعابة ، وتسعدها أن ترى رسول الله (ﷺ) يضحك من مشيتها ، ويأنس إلى خفة روحها ، ويستلمح عبارة من عباراتها .

كما قالت له (ﷺ) مرة : (صليت خلفك يا رسول الله فركعت حتى أمسكت بأنفى مخافة أن يقطر الدم . وتبسم لها رسول الله (ﷺ))

وكانـت بهـا طيبة ، تقول بلسانها مايجيش فى صدرها ، دونما حذر أو انتباه .

روى ابـن اسـحق المطلبى انه عندما قدم بأسرى بدر رأت " سودة " ـ رضـى الله عنها ـ (سهيل بن عمرو)[2] ويكنى بـ " أبى يزيد " فى ناحية حجـرتها قـد جمعـت يـداه إلى عـنقه فقالـت ولم تملـك لسـانها : أي " أبايزيد " أعطيتم بأيديكم . ألا متُّم كراماً؟

---

(١) ـ ثبطة : ثقيلة ، والحديث فى الصحيحين

(٢) أخو زوجها (السكران بن عمرو)

فسمعها رسول الله (ﷺ) فقال : (يا " سودة " أعلى الله ورسوله تحرضين)

فقالت ـ معتذرة : يا رسول الله ، والذى بعثك بالحق ، ما ملكت نفسى حين رأيت " أبا يزيد " مجموعة يداه إلى عنقه أن قلت ما قلت .

هذه الطيبة ليست سذاجة ولكنها عفوية الطبع .

فقد كانت ـ رضى الله عنها ـ نبيهةً لّماحه ، إذ شعرت منذ اللحظة الأولى التى دخلت بها "عائشة" ـ رضى الله عنها ـ بيت النبوة حب رسول الله (ﷺ) لعائشة ، فآثرت "سودة " أن تكون أماً لعائشة وليست ضُرَّةً .

فأحاطتها برعايتها والسهر على راحتها والتقرب منها ، رغم وجود ضرائر بعد ذلك .

وكانت قسمتها من رسول الله (ﷺ) شأن غيرها من أزواجه من مبيت ونفقة .

وأراد (ﷺ) أن يعفيها من حرمان القلب والعاطفة فيطلقها ، فتعلقت به وقالت : (أمسكنى . . . فوالله ما بى على الأزواج من حرص ولكن أحب أن يبعثنى الله يوم القيامة زوجاً لك .

وأضـافت : (أبقينـي يـا رسـول الله ، وأهب ليلتي لعائشة وأني لا أريـد مـا تـريد النسـاء) [1] ولـيس أوفى من رسول الله (ﷺ) ، وقد رق لهـا . وعاشـت " سـودة " ــ رضـى الله عـنها ــ حتـى وافت المائة عام ، فكانت وفاتها فى آخر خلافة سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ

رضى الله تعالى عن أم المؤمنين " سودة بنت زمعه " وأكرم مثواها

(١) صحيح مسلم .

عائشة بنت أبى بكر (رضى الله عنها)

- ❖ معلِّمة الرجال والأجيال
- ❖ الصدِّيقة بنت الصديق
- ❖ لم يتزوج رسول الله (ﷺ) بكراً غيرها
- ❖ المفترى عليها . . . والمبرأة من السماء
- ❖ فى حجرتها مثوى رسول الله (ﷺ)
- ❖ قال رسول الله (ﷺ) : [لا تؤذوننى فى " عائشة " فإنه والله ما نزل على الوحىّ وأنا فى لحاف امرأة منكن غيرها[1]] .

خطبها رسول الله (ﷺ) وهى ابنة سبع فى مكة ، وقيل إنه أُرى صورتها فى سرقة [2] من حرير ، وقيل له : هى زوجتك فى الدنيا والآخرة .

---

(١) فى الصحيحين .
(٢) السَّرقة : قطعة القماش

ورغـم صـغر سـنها وميلها إلى اللهو والمرح كانت حادة الذكاء غاية فى النباهة .

كانـت مخطوبة إلى "جبير بن مطعم بن عدى" ، فلما خطبها رسول الله (ﷺ) أراد "ابـو بكـر" ـ رضـى الله عنه ـ أن لا يجيب بالإيجاب حتى يـراجع "المطعـم" ، فـلما تـيقن مـن عـزوفه بسبب الإسلام وافق على خطبة رسول الله (ﷺ) وقد ارتاحت نفسه .

وتمت الخطبة وأصدقها رسول الله (ﷺ) خمسمائة درهم .

وقـال (ﷺ) لأمها "أم رُومان" : (يا" أم رومُان" استوصى بعائشة خيراً واحفظينى فيها) .

وكانـت "أم رومـان "ـ رضـى الله عـنها ـ صـحابيةً جلـيلة مـن السابقات إلى الإسلام، وكانت وفاتها فى المدينة فى حياة رسـول الله (ﷺ) ، وقـد نـزل فـى قبرها واستغفر لها وقال : (من سره أن ينظر إلى امرأة من الحور العين فلينظر إلى أم رومان) (١).

بعـد الهجـرة ، وقـد استقر مقـام رسـول الله (ﷺ) فى المدينة بعث مـولاه "زيـد بـن حارثـة" إلى مكـة ليصـطحب بـنات الرسول ، ومعه رسـالة مـن "أبى بكر" ـ رضى الله عنه ـ إلى ابنه "عبد الله" يطلب إليه فـيها أن يـلحق بـه مصـطحباً زوجـته "أم رومـان" وابنتـيه "أسـماء "و"عائشـة" وكـان مـع "زيـد أبورافـع "مـولى النبى (ﷺ) فحضروا جميعاً .

---

(١) كانت وفاتها بعد محنة الإفك

وانشغل النبى (ﷺ) شهوراً فى شؤون الدعوة ، فقد وضع دستور المدينة ، وعاهد يهود ، وآخى بين المهاجرين والأنصار ، - وابتنى المسجد النبوى الشريف ، وحجرات أهله حوله .

وذكَّرت "أم رومان" "أبا بكر" بخطبة "عائشة" وقد مضى على ذلك ثلاث سنين ، فأتى رسول الله (ﷺ) وقال : ألا تريد أن تبنى بأهلك يا رسول الله؟

ومن ثم كان الزواج .

وتصف لنا أم المؤمنين "عائشة" - رضى الله عنها - يوم عرسها فتقول: (جاء رسول الله (ﷺ) بيتنا فاجتمع اليه رجال من الأنصار ونساء ، فجاءتنى أمى وانا فى أرجوحة بين عزقين فأنزلتنى ، ثم سوت شعرى ومسحت وجهى بشئ من ماء ، ثم أقبلت تقودنى حتى إذا كنت عند الباب وقفت بى حتى ذهب بعض نفسى ، ثم أدخلتنى ورسول الله (ﷺ) - جالس على سرير فى بيتنا ، فأجلستنى فى حجره وقالت : هؤلاء أهلك . فبارك الله لك فيهن ، وبارك لهن فيك)

وكانت "عائشة" رضى الله عنها كما وُصفت عروساً حلوة ، خفيفة الجسم ، ذات عينين واسعتين وشعر جعد ، ووجه مشرق مشرب بالحمرة .

وانتقلت إلى البيت الجديد ، ولم يكن سوى حجرة من الحجرات التى شيدت حول المسجد ، من اللبن وسعف النخل ، فيه فراش من أدم حشوه ليف ، ليس بينه وبين الأرض إلا الحصير ، وعلى فتحة الباب ستار من الشعر . ولقد قدر لهذا البيت الشديد التواضع أن يكون منارة عالية تشع علماً ومعرفة وهدى ، ويشغل حيزا واسعاً من حركة التاريخ .

يقول أحد المستشرقين[1] المنصفين : (منذ وطئت قدماها بيت "محمد" كان الجميع يحسون بوجودها ، ولو أن هناك شابة عرفت ما هي مقبلة عليه لكانت "عائشة بنت ابى بكر" فلقد كونت شخصيتها منذ اليوم الأول الذى دخلت فيه دور النبى الملحقة بالمسجد).

لقد كان استعدادها الفطرى للتلقى يتجاوز كل الحدود ، تحفظ كل ما يتلى عليها من كتاب الله ، وتستوعب كل حركة وسكَنة عن رسول الله (ﷺ) وتفقه الأحكام ، وتختزن فى واعيتها الشعر والأخبَار والآثار، وكذلك الأنساب.

ومرت بتجارب قاسية ومريرة ودخلت عليها الضرائر واحدة تلو الأخرى ، ورغم معرفتها بمكانتها عند زوجها الحبيب ، وأنها الأثيرة المفضلة ، فقد وقعت تحت تأثير العوامل الأنثوية - ولا حول لها فى ذلك ولا قوة -!!.

أخذتها الغيرة[2] واستبدت بها ، فكونت مع "حفصة بنت عمر" و"سودة بنت زمعة" جبهة نسوية تجاه الأخريات : (أم سلمة - وزينب بنت جحش - وصفية بنت حييّ وجويرية بنت الحارث - ومارية - رضى الله عنهن جميعاً) . وبدأت الدسائس[3]

---

(١) "بودلى" فى كتابه (الرسول) (ص: ٩٣ - ١٣٠ من الترجمة العربية): (محمد فرج) و(عبدالحميد السحار) .

(٢) كان رسول الله (ﷺ) يرى ذلك فيسألها : (أغرت ؟) فتقول : (ومالى أن لا يغار مثلى على مثلك؟)

(٣)يرجى مراجعة التفاصيل فى كتب السيرة

ولم يكن رسول الله (ﷺ) ليشغل نفسه وذاته الشريفة بهذه الأمور ، فالدعوة وهمومها أكبر بكثير من كل ذلك ، حتى إذا استفحل الأمر وانتشر اعتزلهن جميعاً مدة شهر بتمامه فجز عن لذلك وراج بين الناس أن رسول الله (ﷺ) قد طلق نسائه ، وكان "عمر" ـ رضى الله عنه ـ أشد الأصهار خوفاً ، من أن يكون الخبر صحيحاً ، فسعى إلى لقاء النبى (ﷺ) واستفسره فَصد عن اللقاء أولاً وبعد إلحاح سمح له ، ثم خرج من حضرة النبى "ﷺ" مطمئنا .

لم يطلقهن (ﷺ) ـ ولكنه خيرهن ـ كما أمره الله تعالى وقد تكاثرنَ عليه جميعا بطلب التوسعة في النفقة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَـٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ

ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (الأحزاب : ٢٨ ـ ٣٤). ولقد اخترن جميعهن الله ورسوله !

ويهمنا جواب ـ عائشة ـ الصديقة إذ قالت : (أفى الله ورسوله تخيرنى يا رسول الله ! !) .

إذ ارتفع إيمانها وإسلامها عن ماديات الحياة وعن سفاسف الرغبات الانثوية .

وكانت حادثة الإفك[1] من أقسى وأعنف ما مرَّت به السيدة "عائشة" ـ رضى الله عنها ـ فى حياتها كانت محنة مريرة بالغة المرارة . . ! روَّج لها رأس النفاق "عبد الله بن أُبى بن سلول" متهماً أم المؤمنين فى عرضها وشرف البيت النبوى حتى إن فريته رددها بعض المسلمين من غير تبيُّن .

ومرت أيام طوال على رسول الله (ﷺ) كان فيها شديد الحزن والأسى . . !

ولم تعلم أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ بما يشاع ويقال إلا صدفة . . . ، ووقع ذلك عليها وقوع الصاعقة ولامت أبويها على كتمانهما الخبر عنها .

ولما جاءها رسول الله (ﷺ) فى بيت أبويها يقول لها : .

---

(١) القصة طويلة روتها "عائشة" ـ رضى الله عنها ـ بلسانها "يرجع إليها فى كتب السير .

(يـا "عائشة" إنه قد كان ما قد بلغك من قول الناس فاتقى الله وإن كـنت قـد قارفْتِ سوءاً مما يقول الناس فتوبى إلى الله فإن الله يقبل التوبة من عباده)

نظرت إلى أبويها تستنطقهما فلم يتكلما . . . وتحيرا . . !

فاتجهت إلى رسول الله (ﷺ) تقول :

(والله لا أتـوب إلى الله مما ذكرت أبداً والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم أنى بريئة لأقولن ما لم يكن، ولئن أنا أنكرتِ ما يقولـون لا تصـدقوننى ولكن سأقول كما قال أبو يوسف[1] ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ (يوسف : ١٨)

وحيث استعانت بالله تعالى . . . استجاب لها . . . !

وأخـذ الوحـيُ يتنـزل علـى رسـول الله (ﷺ) فسُـجِّى فـى ثـوبة ووضـعت لـه وسـادة مـن أدم تحـت رأسـه، ثـم سُـرِّىَ عـنه فالـتفت الى "عائشة" وقال :

(أبشـرى يـا "عـائشة" فقد أنزل الله براءتك . . .) وتلا عليها آيات سورة النور (النور: ١١ـ١٩) وطلبت اليها "أم رومان" أن تقوم وتقبل رأس رسول الله (ﷺ) فقالت : (والله لا أقوم اليه فإنى لا أحمد إلا الله عز وجل ، هو الذى أنزل براءتي) .

وعادت الحصان الرزان إلى بيتها ـ حجرتها ـ معززة مكرمة مُبَرّأةً من عند الله تعالى ، وعادت إلى مكانتها ومنزلتها .

---

(١) يعقوب عليه السلام حاولت أن تتذكر اسمه فلم تسعفها الذاكرة فى الموقف الحرج .

بعـد حجـه (ﷺ) بأشـهر قلائل[1] وفى أواخر شهر صفر سنة عشرة مـن الهجرة أرق ذات ليلة فخرج إلى البقيع يحيى الراقدين ويستغفر لهم علـى عادته ولما عاد وجد "عائشة" تشكو صداعاً وتقول وا رأساه فقال (ﷺ) : (بل أنا والله يا "عائشة" وا رأساه!!!)

وكانـت تلك بداية الحمى التى نزلت به (ﷺ) وآذنت بوفاته وانتقاله إلى الرفيق الأعلى.

وكـان مـن عادتـه (ﷺ) أن يمـر كـل صـباح بزوجاته ليطوف عليهن ويؤانسهن ويتفقد أحوالهن فلما كان فى بيت "ميمونه بنت الحارث" ـ رضـى الله عـنها ـ ثقل به الوجع فقعد واجتمعت أمهات المؤمنين حوله وقد تسارعن اليه وأخذ (ﷺ) يردد : (أين أنا غداً ؟ أين أنا غداً)

فأدركْن رغبته فقلن جميعاً :

(يا رسول الله . . . قد وهبْنا أيامنا لعائشة)

وانـتقل "ﷺ" إلى حجرة "عائشة" التى قامتْ على تمريضه والسهر على راحته وتخفيف ما يعانيه من ألم المرض وحرارة الحمى. . . !

وكـان نسـاؤه يجتمعن عندها وكذلك أهل بيته "فاطمة" ـرضى الله عـنها ـ وأولادهـا وكلـهم فـى اشـفاق ولهفة وحسرة حتى كانت لحظة الفراق والوداع . . . !

تقول "عائشة" ـ رضى الله عنها ـ واصفة تلك اللحظة الرهيبة :

(وجـدت رسـول الله (ﷺ) يثقل فى حجرى فذهبت أنظر إلى وجهه فـإذا بصـره قـد شـخص وهـو يقـول : (بـل الرفيق الأعلى من الجنة!)

---

(١) قيل ثلاث أشهر

فقلت: خُيِّرتَ فاخترت والذى بعثك بالحق . . !وقبض رسول الله(ﷺ) بين سحرى ونحرى ا، فمن سفهى حداثة سنِّى أنه (ﷺ) قبض وهو فى حجرى ثم وضعت رأسه على وسادة وقمت ألتدم مع النساء وأضرب وجهى)[1]

وكان من كرامتها ـ رضى الله عنها ـ أن يدفن رسول الله (ﷺ) فى حجرتها تصديقا لما رواه "أبو بكر" رضى الله عنه عن رسول الله (ﷺ) أن الأنبياء يدفنون حيث قبضوا.

وهكذا كان قبره الشريف (ﷺ) أمام ناظريها دائما إلى أن فارقت الدنيا.

وعاصرت رضى الله عنها خلافة أبيها "أبى بكر" وخلافة "عمر" وخلافة "عثمان" رضى الله عنهم وكانت موضع تقدير واحترام وإكرام.

وكان بيتها موئل علم وفضل . . ، ويؤمُّه طلاب المعرفة ويحج إليه ذوُو الحاجة، ولقد تربى فى حجرها العددُ العديد من أبناء الصحابة أمثال "عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية "و "عروة بن الزبير"و" القاسم ابن محمد" وغيرهم.

وحدث الاعرج عن إنفاقها من مخصصاتها كأم للمؤمنين فقد كانت تقتصر فى معيشتها على الضرورة وتنفق الباقى فى سبيل الله وابن

---

(١)تاريخ الطبرى ونحوه فى صحيح مسلم واللدم صوت الحجر يرتطم بالأرض، والسحر: الرئة.

السـبيل ومما يؤثر عنها انها كانت تطيِّب الدراهم التى تبذلها بالمسك !!
فلما سئلت عن ذلك قالت :

(لأنها تقع فى يد الله تعالى قبل أن تقع فى يد الفقير)!!

عـند استشـهاد "عـثمان" ـ رضى الله عنه ـ اتخذت موقفاً ، نعرضه ولا نعلِّق عليه . . !

تآلفـت مع "الزبير بن العوام" و"طلحة" بن عبيد الله رضى الله عنه ـ" ضد "على" كرم الله وجهه مطالبين بالاقتصاص من قتلة "عثمان" على الفور . . !

ومـن ثـم كانت معركة "الجمل" وانما سميت بذلك لأن "عائشة" ـ رضـى الله عـنها ـ كانـت فـى هودج فوق جمل ، وانتهت المعركة بهزيمة جـيش المتحالفين وحرص "على" رضى الله عنه أن لا تمس "عائشة" ـ رضى الله عنها ـ بسوء . . ، وأعيدت إلى "المدينة". مصونة مكرمة .

وآثـرت رضـى الله عنها أن تبتعد عن كل ما من شأنه أن يمس الحكم والسياسة لا من قريب ولا من بعيد وتفرغت للعبادة والعلم . . . !

وأضْحى بيتها محجة لطلاب الفقه والحديث ، وأقوالها حجة .

يقـول الإمـام "الزهـرى" : (لـو جمـع علم "عائشة" إلى علم جميع أزواج النبى (ﷺ) وعلم جميع النساء لكان علم "عائشة" أفضل) .

وكانت وفاتها رضى الله عنها ليلة الثلاثاء السابع عشر من رمضان سنة سبع وخمسين وقد أتمت السادسة والستين من عمرها ، وصلى عليها "أبو هريره" ـ رضى الله عنه ـ وشيعت جنازتها فى غسق الليل إلى مثواها فى البقيع على أضواء مشاعل من جريد مغموس فى الزيت ، وسارت الجموع من ورائها باكية فلم تُرَ ليلة أكثر ناساً منها .

رضى الله عنها وأرضاها وأكرم فى الجنة نزلها ومثواها والحقنا بها فى الصالحين من عباده

حفصة بنت عمر (رضى الله عنها)

❖ حافظة كتاب الله تعالى .
❖ الصوّامة القوّامة .
❖ أرملة الشهيد " خنيس بن حذافة السهمى " .
❖ زوجة رسول الله (ﷺ) فى الجنة .
❖ طُلقت ثم ارتجعت بأمر الله تعالى ووحيه .
❖ المتحالفة المتآلفة مع " عائشة " .

كـل زواج لرسول الله (ﷺ) كانت له ظروفه ودوافعه، لم يكن رغبة فـى امـرأة بقـدر مـا كان جبراً لخاطر ورحمة وتواصُلاً . . . ، وعليه كان زواجه من " حفصة بنت عمر " ـ رضى الله عنهما ـ

و "حفصة" مؤنث "حفص" الذى هو أحد أسماء الأسد ، ولذا كان (ﷺ) يكنى "عمر "بأبى حفص على الترخيم[1] كما كان ينادى "عائشة" ـ رضى الله عنهما ـ يا عائش .

ولدت "حفصة" ـ رضى الله عنها ـ قبل البعثة النبوية الشريفة بخمسة أعوام ، وأسلمت مبكرة حين أسلم أبوها ، وتزوجت من "خنيس بن حذافة السهمى" بعد رجوعه من الحبشة التى هاجر اليها مع الرعيل الاول ، ثم هاجرت معه إلى المدينة

شهد "خنيس" "بَدْراً" وأبلى فيها بلاءً حسناً ثم شهد "أحداً" فأصيب يومها بجراح ما لبث ان استشهد على أثرها ، وكان نعم الزوج الصالح للزوجة الصالحة .

ترملت "حفصة" مبكرة ، إذ كانت فى العشرين من عمرها ، فكان أبوها "عمر" ـ رضى الله عنه ـ يرق لها ويحن لأساها ، ودمعها الذى لا يجف على رفيق حياتها ، ويرغب فى زوج لها يعوضها عما بها .

وكان "الصدِّيق" ـ رضى الله عنه ـ أقرب الناس إليه وأحبهم إلى قلبه بعد رسول الله (ﷺ) فأتاه وعرض عليه الزواج من "حفصة" ، فسكت "أبو بكر" ولم يجب، لا سلبا ولا ايجابا فظن، "عمر" ـ رضى الله عنه ـ ان "أبا بكر" يرفض الزواج من "حفصة" فوجد فى نفسه عليه .

---

(١) الترخيم ـ فى اللغة ـ التليين ، وقيل الحذْف منه ترخيم الاسم فى النداء وهو ان يحذف من آخره حرف أو أكثر

وكـان "عـثمان بن عفان" ـ رضى الله عنه ـ حديث عهد بترمّل بعد وفـاة زوجـته "رقية" ـ رضى الله عنها ـ بنت رسول الله (ﷺ) وأتاه عمر وعـرض علـيه "حفصة" معتقداً أن فى ذلك مواساة له فاستمهله عثمان اياما ، فرآه بعدها ، فقال "عثمان" : ما أريد أن أتزوج اليوم.

وأحـس "عمـر" من بالمهانة تجرح كبرياءَهُ ، وما ادراك ما كان عليه الفـاروق مـن اعتـزاز بشخصـيته ، ولم يجد من يواسى هذه الجراح إلا رسـول الله (ﷺ) فجـاءه ثائرا غاضبا ، شاكيا صاحبيْه الصديق وعثمان ، فلاطفـه النبـى (ﷺ) وهـش لـه وأقعـده إلى جانـبه ، ثم قال له : (يا "عمـر" . . يتـزوج "حفصـة" مـن هـو خـير مـن "عثمان" ويتزوج "عثمان" من هى خير من "حفصة")

وأشـرقت نفـس "عمر" بالآمال ، وقد أدرك مغزى هذه التورية ، فقام إلى النبى (ﷺ) مصافحاً، وقد هدأت نفسه وأطمأن فؤاده ، وخرج من عنده والفرح يملأ عطفيه .

فسيكون "عمر" منذ اليوم ليس الصاحب فقط ، بل الصهر لرسول الله (ﷺ)

وعـند الـباب لقيه "أبو بكر" ـ رضى الله عنه ـ فاستوقفه وعلم منه مـا كـان ، وقال له : (لا تجد "على" يا "عمر" ، فإن رسول الله (ﷺ) ذكـر "حفصـة" فلـم أكـن لأفشـى سـراً لرسـول الله ، ولـو تركها لتزوجتها)

وتم زواج رسـول الله (ﷺ) مـن "حفصـة" ـ رضى الله عنها ـ فى شـهر شـعبان مـن السـنة الثالـثة مـن الهجرة ، ودخلت بيت النبوة أماً للمؤمنين .

وكـان بـين "عائشـة" و "حفصـة" بـادئ الأمـر نوع من التنافس ، بدافـع الغـيرة والفطـرة النسـوية ولكـن كـلا مـنهما بعـد فـترة تآلفـت وتعاونـت وتصـادقت ، وكونـتا جبهة تجاه الضرائر الأخريات اللواتى تكاثرن فى بيت النبوة.

وكـان "عمـر" - رضى الله عنه - يعرف ما فى طبيعة خلق "حفصة" مـن حـدَّة وعـنف ، فكـان يخشى عليها من الانزلاق فى تيار "عائشة" فكان يَقول لها : (أين أنت من "عائشة"؟ وأين أبوك من أبيها؟) محذرا اياها من غضب الله وغضب رسول الله .

وذات يـوم سمـع مـن زوجـته أن "حفصة" تراجع رسول الله (ﷺ) حـتى يظـل يومـه غضـبان فأتاهـا يسـألها عـن صـحة ذلـك ، فأجابته بالإيجـاب ، فاستشـاط وقال : (تعلمين أنى أحذرك عقوبة الله وغضب رسـول الله ، يا بنيَّه لا يغرنك هذه التى اعجبها حُسْنها وحب رسول الله اياها ، والله لقد علمت أن رسول الله لا يحبك ، ولولا أنا لطلقك)

ويـروى أن "عائشـة" و "حفصة" قد اتفقتا على أن تقلن قَوْلاً واحدا فـى شرب العسل الذى تسقيه اياه "زينب بنت جحش" (ﷺ) فيقلن أن فى فيه (ﷺ) رائحة مغافير [1] وأن هذا العسل رعت نحله العرفط[2] .

فـلما قالـت "حفصـة" ذلـك صـرَّح لهـا بأنه قد شرب العسل عند "زينب" وأنه لن يعود إلى ذلك ، وحرمه على نفسه واستكتمها .

---

(١) المغافير : ثمر حلو كريه الرائحة وكان (ﷺ) لا يطيق الرائحة الكريهة .

(٢) العرفط : ثمر المغافير

فأنزل الله تعالى قوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ (التحريم : ١-٢)

لكن - حفصة - لم تكتم السر بل أذاعته ، فعاتبها رسول الله عتابا شديدا وكشف كل ما كان منها ومن "عائشة" وطلقها ، وقد نبأه الله تعالى بما فعلت وقبل أن تنشر الخبر ، يقول تعالى : ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ (التحريم : ٣-٥) .

واهتز كيان "عمر" وزلزل زلزالا شديدا ، فكان يردد : (ما يعبأ الله بعمر وابنته بعدها) .

ويروى بأن "جبريل" - عليه السلام - نزل فى الغد على رسول الله (ﷺ) وقال له : (إن الله يأمرك أن تراجع "حفصة" رحمة بـ"عمر") .

وفى رواية أخرى : (أرجع "حفصة" فإنها صوامة قوامة ، وأنها زوجتك فى الجنة) .

فـراجعها رسـول الله (ﷺ) وأعادها إلى عصمته ، وردت الروح إلى " عمر " بعد أن كادت تزهق .

بعـد أن انـتقل رسـول الله (ﷺ) إلى الـرفيق الأعلـى كانت " حفصة " رضـى الله عنها هى التى اختيرت من بين أمهات المؤمنين جميعاً لتحفظ النسخة الخطية للقرآن الكريم .

ذلك أن " عمر " ـ رضى الله عنه ـ أشار على " أبى بكر " ـ رضى الله عـنه ـ أن يـبادر فيجمع ما تفرق من القرآن الكريم فى صحف شتى قبل أن يـبعد العهـد بنزولـه ، ويمضى حفظته الأولون ، وقد استشهد منهم المئات فى حروب الردة .

واسـتجاب " الصديق " ، فجمع المصحف الكريم ، وأودعه عند أم المؤمنين " حفصة " ـ رضى الله عنها ـ .

فبالإضـافة إلى كـونها ـ رضـى الله عـنها ـ صـوّامة قـوامة ، عابـدة مُتَبَـتِّله ، كانـت قارئـة كاتـبة ، حافظـة لكـتاب الله تعـالى ، واعـية لمـا استؤمنت عليه .

فلمـا كانـت خلافة " عثمان " ـ رضى الله عنه ـ استخرجت النسخة وخطـت فـى مصـحف واحـد ، ونسـخت منه سبع نسخ بلهجة قريش وزعت على الأمصار .

وتمضـى السـنون بأم المؤمنين " حفصة " حتى خلافة " معاوية بن أبى سفيان " ، وفى سنة سبع وأربعين توفاها الله تعالى إليه ، واختارها إلى جواره ، ودفنت بالبقيع .

رضـى الله عـنها وأرضـاها وأنـزلها منـزلها فى الفردوس الأعلى ، وأكرم مثواها .

زينب بنت خزيمة (رضى الله عنها)

- ❖ أم المساكين وأم المؤمنين .
- ❖ أرملة الشهيد[1] .
- ❖ ماتت فى حياة رسول (ﷺ) .
- ❖ أول من دفنت بالبقيع من أمهات المؤمنين .

هـى : " زيـنـب بـنـت خـزيمة بن عبد الله بن عمرو بن عبد مناف بن هلال ابن عامر بن صعصعة " الهلالية .

وأمهـا " هـند بـنت عـوف "[2] كان يقال فيها : (ولا يعلم امرأة فى العـرب كانـت أشـرف أصـهاراً مـن هـند بـنت عـوف ، أم مـيمونة وأخواتها)[3] .

فـ " زيـنـب " رضـى الله عـنها أخـت أم المؤمـنين " مـيمونة بـنت الحارث " الهلالية لأمِّها .

---

(١) الراجح أنه "عبَيْدة بن الحارث بن عبد المطلب "ابن عم النبى (ﷺ)

(٢) " هند بنت عوف بن الحارث بن حماطة " ـ الحميريَّة ـ.

(٣) (الإصابة)، و (المحبر) ، (١٠٥ ـ ١٠٩).

وكذلـك "أسماء بنت عميس" ـ رضى الله عنهاـ زوجة "جعفر بن أبى طالب"ـ رضى الله عنه ـ.

اختلفـت الأقوال فى زوجها فقيل : كانت عند "الطفيل بن الحارث ابـن عبد المطلب" ، فلما مات خلفه عليها أخوه "عبيْدة بن الحارث بن عبد المطلب" ، وبعد استشهاده خطبها رسول الله (ﷺ) .

وقيل: كانت عند "جهم بن الحارث الهلالى" قبل "عبيدة" .

وقـيل : بـل كانت عند "عبد الله بن جحش" ، وبعد استشهاده فى "أُحُد" خلفه عليها رسول الله (ﷺ) .

كَما اختلف أيضاً فى مَنْ تولى زواجها من رسول الله (ﷺ) .

فقـيل : إن رسـول الله (ﷺ) خطـبها إلى نفسها ، فجعلت أمرها إليه فتزوجها .

وقـيل : زوَّجه إياها عمُّها : "قبيصة بن عمرو الهلالى" ، وأصدقها رسول الله (ﷺ) أربعمائة درهم .

واخـتلفوا أيضـاً فـى المدة الـتى أقامتها زوجة لرسول الله (ﷺ) وأماً للمؤمنين ، ولم يختلفوا فى وفاتها عنده .

قال بعضهم : أقامت عنده (ﷺ) ثمانية أشهر ، ثم توفيت .

أمـا أكثرهم فقالوا : أقامت عنده (ﷺ) ثلاثة أشهر ، ثم اختارها الله تعالى إلى جواره .

ولا خـلاف فـى أن زواجـه (ﷺ) مـن "زينـب بنت خزيمة" كان بعد استشـهاد زوجهـا ، سـواء كان ذلك الزوج هو "عبيدة بن الحارث" أو "عبد الله بن جحش" .

ومن نافلة القول أن نكرر بأن الزواج من أرملة الشهيد كان عرفاً متبعاً يحمل معنى الوفاء والتكريم للشهيد ، لإيناس الأرملة .

والأشهر القليلة ـ سواء كانت ثمانية أو ثلاثة ـ التى أقامتها فى بيت النبوة كستها حلة فاخرة ، ولقباً تشرف به ، وهو " أم المؤمنين " .

وأيضاً فقد كان لها لقب ذاتى آخر أنعم الله تعالى عليها به هو " أم المساكين "

إذ كانت ـ رضى الله عنها ـ تتصفُ بالطيبة والكرم ، والعطف على الفقراء " المساكين " فلا يكاد يذكر اسمها فى أى كتاب من كتب السِّيَر والتاريخ إلاّ مقروناً بهذا اللقب الكريم .

قال ابن هشام فى السيرة : (وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ورقتها عليهم) .

وقال " ابن حجر " فى " الإصابة " و " ابن عبد البرّ " فى " الاستيعاب " : (كان يقال لها أم المساكين لإنها كانت تطعمهم وتتصدق عليهم)[1]

وكانت وفاتها ـ رضى الله عنها ـ فى الثلاثين من عمرها ، فى السنة الثالثة من الهجرة .

وصلى عليها رسول الله (ﷺ) ودفنها بـ " البقيع " واسترحم لها واستغفر ، فكانت أول من دفن من أمهات المؤمنين فيه .

رضى الله عنها وأرضاها جزاء ما أسلفت من خيرٍ وبرٍ ورحمة ، وألحقنا بها فى الصالحين من عباده .

---

(١) وكذلك فى تاريخ الطبرى و " شذرات الذهب "

هند بنت أبى أمية (رضى الله عنها)

- أم سلمة ، وأم المؤمنين .
- بنت " زاد الراكب " .
- الحسناء . . . . الأبية . . . . الفطنة . .
- ذات الهجرتين .
- صاحبة المشورة ومعدن الرأى الصائب .

أدوار عديدة ، وفصول متعددة مرت بها حياة " هند " ـ أم سلمة ـ رضى الله عنها . . ، كانت تترقى بها إلى العلو ، جتى بلغت السماك ، فكانت أماً للمؤمنين .

أسلمت " هند بنت أبى أمية بن المغيرة " ـ المخزومى ـ مبكرة مع زوجها " عبد الله بن عبد الأسد " ـ المخزومى ـ ابن عمة رسول الله (ﷺ) : " برة بنت عبد المطلب " وأخوه من الرضاعة ، إذ أرضعتهُما " ثويبة مولاة " أبى لهب " .

وكان أبوها يلقب بـ " زاد الراكب " إذا سافر لايترك أحداً يرافقه ومعه زاد ، بل يكفى رفقته جميعاً .

هاجـرت ـ رضـى الله عـنها ـ مـع زوجهـا إلى الحبشة فراراً من ظلم قـريش وبطشـها وجـبروتها ، وتحملـت أنـواع الأسى والجهد والحنين راغبة إلى الله تعالى .

ثـم عـادت مـع زوجهـا إلى "مكـة" حـين بلغهـم إسلام "عمر بن الخطاب" ، مع من عاد .

فلمـا كانـت "بـيعة العقـبة" ، وأذن رسـول الله (ﷺ) لأصـحابه بالهجرة إلى المدينة ، كان زوجها أول منَ هَاجر بأهله .

ولكـن . . . لم يـتم له ما أراد وتمنى ، فقد لحق به "بنو المغيرة" قوم "هـند" فـى ضواحى مكة فاستعادوها منه وتركوه يمضى وحده ، كما تنازعوا مع "بنى عبد الأسد" قوم "أبى سلمة" على الطفل "سلمة" ، وتجاذبوهُ حتى خلعوا كتفه .

وفرِّق بين الزوج وزوجته وولدهما . . . .

وبقـيت ـ رضـى الله عـنها ـ فـى "مكة" نحو عام محبوسة لا يرقأ لها دمـع ولا تجـف لهـا عـبرة ، حتـى رق لهـا بعض أهلها ، فقالوا لها : إلحقى بزوجك إن شئت .

فخـرجت ومعهـا طفلـها "سـلمة" وحـيدة تريد "المدينة" ، ولكن قـيَّض الله تعالى لها رجلاً شهماً هو "عثمان بن طلحة" (١) فأبى عليها ـ وقـد رثـى لحالها ـ أن تغامر وتخاطر ، فصحبها حتى بلغ بها "قباء" ثم عاد .

---

(١) كان على شركه ، ثم أسلم بعد الحديبية ، وهاجر مع خالد بن الوليد وعمرو ابن العاص إلى المدينة .

ولم يعـرف تـاريخ الهجـرة وظروفها ووقائعها مأساة كالذى حدث لأسرة "أبى سلمة" .

واضطلع "أبو سلمة" رضى الله عنه بقسط كبير من مسؤولية الجهاد فى سبيل الله ، جندياً وأميراً ، فى الغزوات والسرايا .

وأصـيب يـوم "أحد" بسهم فى عضده سبب له جرحاً بليغاً تداوى مـنه فـترة ، وظن أنه التأم . وخرج فى سرية قائداً لها ، بأمر رسول الله (ﷺ) إلى "بنـى أسـد" ، وعـاد منصـوراً . . ولكـن جـرحه انتكأ وعاد ينزف ، وأقعده عن الحركة ، ومازال يعانى حتى قبضه الله إليه .

وحضـره رسـول الله (ﷺ) وهـو على فراش موته ، وبقى إلى جانبه يدعو له بالخير حتى مات ، فأسبل بيده الكريمة عينيه .

وكان أبو سلمة ـ رضى الله عنه ـ يدعو قبيل وفاته : (اللهم أخلفنى فـى أهلـى بخـير) وكانـت "أم سـلمة" تسـمعه ، ولا تدرك أبعاد تلك الدعوة ، حتى خطبها رسول الله (ﷺ) .

صـلى عليه رسول الله (ﷺ) وكبر تسع تكبيرات[1] . . ! ، فقيل له : يا رسول الله أسهوت أم نسيت ؟

فقـال : (لم أسْـهُ ولم أنْس . . ، ولو كبرت على "أبى سلمة" ألفاً كان أهلاً لذلك)[2]

بعـد تمـام عدة أم سلمة تقدم "الصديق" ـ رضى الله عنه ـ لخطبتها ، فرفضت فى رفق ، وكذلك تقدم "الفاروق" ـ رضى الله عنه ـ فأجابته بمثل ما أجابت به صاحبه .

---

(١) تكبيرات صلاة الجنازة أربع تكبيرات .

(٢) أورد ذلك الإمام الطبرى فى تاريخه (٢/ ١٧٧) .

ثـم بعـث إليها النبى (ﷺ) يخطبها . . فتحرجت ، ثم اعتذرت بأنها ذات غـيرة . . ، وأنهـا مُسـنَّة . . ، وأنهـا ذات عـيال . . ، وكانـت قد أنجبت من "أبى سلمة" ، أَولادها : (سلمة ـ وزينب ـ وعمر ـ ودرة) .

فأجابهـا (ﷺ) : (أما أنك مسنة فأنا أسن منك ، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك ، وأما العيال فإلى الله ورسوله)

وتم الـزواج فـى شـهر شوال سنة أربع من الهجرة . . . ، وتذكرت "أم سـلمة" حينئذ دعاء "أبى سلمة" : (اللهم اخلفنى فى أهلى بخير) فرسول الله (ﷺ) وحده فقط خير من "أبى سلمة" .

ودخلـت "أم سـلمة" مـع أولادهـا فـى كـنف رسـول الله (ﷺ) ، وخلفـت "أم المسـاكين" فـى حجـرتها وكانت ـ رضى الله عنها ـ رغم سنها ما تزال تستمتع بقسط وافر من الحسن .

تقول السيدة "عائشة" ـ رضى الله عنها ـ:

(لمـا تـزوج رسـول الله (ﷺ) "أم سلمة" حزنت حزناً شديداً لما ذكر لنا من جمالها، فتلطفت حتى رأيتها، فرأيت أضعاف ما وصفت به)(١) .

وتـربى أولاد "أبـى سـلمة" فـى حجـر النـبى (ﷺ) يـرعاهم ويحنو عليهم ويغدق عليهم من عطفه ، حتى عُدُّوا من أهل البيت .

كانـت السـيدة "عائشـة" ـ رضـى الله عـنها ـ تـباهى ضـرائرها بأن الوحـى عـلى رسـول الله (ﷺ) كان يتنزل فى بيتها ، فلما تزوج بـ ـ أم ـ سـلمة ـ قاسمـتْها ذلك الشرف ، وذلك لما أُوحىَ به إليه (ﷺ) عن "أبى

---

(١) طبقات (ابن سعد) .

لبابة "بشير بن عبْد المنذر" حين استشاره "بنو قريظة" فأشار عليهم ، واعتقد أنه تهور مسرعاً دون رسول الله (ﷺ) ، ونذر أن يربط نفسه إلى سارية من سوارى المسجد ، حتى يتوب الله عليه(٢) .

ونزل قول الله تعالى فى سورة التوبة : ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الآية : ١٠٢).

وكان ذلك فى بيتها ـ رضى الله عنها ـ وسمعت رسول الله (ﷺ) يتلو الآية الشريفة ، ويقول: (لقد تيب على أبى لبابة) .

فقالت مستبشرة : أو لا أبشره يا رسول الله ! !؟ فقال (ﷺ) : بلى . . . إن شئت .

ويوم "الحديبية" وقد لجت القضية، وأبرم العهد بين رسول الله (ﷺ) وبين "سهيل بن عمرو" ممثلاً لـ قريش ، أراد رسول الله (ﷺ) أن يتحلل من إحرامه فينحر هديه ويحلق رأسه ، وأمر أصحابه بذلك ، ولكنهم لم يستجيبوا ، فحزن لذلك ودخل خيمة "أم سلمة" شاكياً ، فقالت ـ رضى الله عنها ـ: (أتحب ذلك؟ أخرج ولا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك)

فاستجاب (ﷺ) لمشورتها ، فلما رأى أصحابه منه ذلك بادروا إلى النحر والحلق والتقصير وتزاحموا حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً.

ويروى أنها ـ رضى الله عنها ـ رافقته يوم "خيبر" "وفتح مكة" وحصار "الطائف" وكذلك فى غزوة "هوازن" و"حجة الوداع" .

---

(٢) يرجى مراجعة ذلك بتفاصيله فى كتب السيرة .

وبعـد وفاتـه (ﷺ) كانت "أم سلمة" موضع تكريم خلفائه من بعده واحترامهـم وتقديـرهم ، لمكانـتها عـند رسـول الله (ﷺ) ومنزلـتها بين أمهات المؤمنين ، والصحابة أجمعين.

ولمـا كانـت الفتـنه بـين "على" "وطلحه" "والزبير" "وعائشة" ـ رضـى الله عـنهم ـ مالَـتْ "أم سـلمة" إلى "عـلى" ـ كـرم الله وجهه ، وعاتبـت "عائشـة" أشد المعاتبة وحذرتها من الخروج ، وقالت : (أى خـروج هـذا الذى تخرجين ؟ الله من وراء هذه الأمة!! لو سرت مسيرك هـذا ثـم قـيل لى : أدخـلى الفـردوس ، لأسـتحييت أن ألقى "محمداً" هاتكة حجاباً قد ضربه علىَّ).

وعاشـت ـ رضـى الله عـنها ـ إلى خلافـة "يزيد بن معاوية" وكانت وفاتهـا سـنة أحـدى وسـتين بعـد أن جاؤها بخبر إستشهاد "الحسين بن عـلى" ـ رضـى الله عـنهما ـ والمشـهور أنهـا آخـر زوجـات النبى (ﷺ) وفاةً.

رضـى الله عن "أم سلمة" أم المؤمنين وأجزل مثوبتها ، وأكرم نزلها فى الفردوس الأعلى .

زينب بنت جحش (رضى الله عنها)

- الشابة . . . . الشريفة . . . . الحسناء؛ وأم المؤمنين .
- بنت عمة رسول الله (ﷺ) : "أميمة بنت عبد المطلب" .
- زوَّجها الله تعالى لرسوله بأمر من السماء .
- رافق زواجها أحكام وتشريع وإبطال لعرف جاهلى .
- غيرَّ رسول الله (ﷺ) إسمها من "برة" إلى "زينب" .
- قالت عنها "عائشة" ـ رضى الله عنها ـ : (لم أر آمرأة قط خيراً فى الدين من "زينب" ، وأتقى لله ، وأصدق حديثاً ، وأوصل للرحم ، وأعظم صدقة ، وأشد ابتذالاً لنفسها فى العمل الذى يتصدق به ويتقرب إلى الله عز وجل)[1]

هى : "زينب بنت جحش بن رئاب بن يعمر" الأسدية ، أخت "عبد الله" و"عبيد الله" أبى أحمد[2] و"حمنة" ، وأمهم "أميمة بنت عبد المطلب" عمة رسول الله (ﷺ) .

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه .

(٢) سيأتى ذكر "عبيد الله" عند الحديث عن "أم حبيبة" أم المؤمنين ـ رضى الله عنها .

أسلمت مبكرة مع أهلها ـ أخواتها وإخوانها وأمها ـ وكانت شديدة الفخر بجمالها ونسبها ، فرفضت العديد من الخطاب متباهية متعالية .

وفى المدينة بعد الهجرة ، وقد بلغ "زيد بن حارثة" ـ رضى الله عنه ـ سن الزواج ، وكان من قبل ربيباً ومولى لرسول الله (ﷺ) ، وقد تبناه ، ثم جاء الأمر من السماء بإحقاق حقيقة النسب ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (الأحزاب : ٤ـ٥) .

فأبطل عرف التبنى الجاهلى ، واشتهر "زيد" بإنه مولى رسول الله (ﷺ) وأراد (ﷺ) أن يزوج زيداً "مولاه" ، وكان قد آخاه مع عمه "حمزة" ، فاختار له "زينب بنت جحش" ولكنها وأخاها "عبد الله" كرها هذا الاختيار ، وحاولا الاعتراض ، إذ كيف تزف الشريفة إلى مولى من الموالى !!؟

وما كان الإسلام ليفرق بين شريف ومولى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ (الحجرات : ١٣) .

ومازالا يراجعان رسول الله (ﷺ) فى هذا الاختيار إلى أن نزل قول الله تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ

وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ (الأحزاب : ٣٦). فأذعنا لأمر الله ورسوله ، وتزوج زيد بـ "زينب" .

لكن "زينب" من حيث تكوينها النفسى والوراثى ظلت تنظر إلى "زيد" من عل ، ولقد عانى - رضى الله عنه - المعاناة الشديدة الدائمة من سوء معاملة "زينب" له ، فكان يشكو إلى رسول الله (ﷺ) طالباً فراقها ، فيثبته (ﷺ) ويدعوه إلى الاستمرار ويقول له : ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ (الأحزاب : ٣٧) .

وبالإضافة إلى قطع دابر الفروق الجاهلية وإبطال دعاويها بتزويج الشريفة من المولى . كذلك أبطل الإسلام بهذا الزواج عرف التبنى الذى كان سائداً .

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

(الأحزاب : ٣٧)

ولابد من تشريع آخر وثيق الصلة بالتبنى .

فقد كان العرف الجاهلى يقضى بأن لا يتزوج المتبني بزوجة المتبنى بعد طلاقها أو فراقها . فلا التبنى عدل وقسط ولاما يلحق به من عرف موروث . وعليه ، فقد تم طلاق "زينب" من "زيد" ، وتزوجها رسول الله (ﷺ) .

أما ما ذهب إليه بعض المفسرين ، وذوو الأغراض والأهواء - والمستشرقون - من تحميلات وتأويلات وربط كل ذلك بهوى قديم فى

نفس رسول الله (ﷺ) فمآله إلى النفى ، فالأحكام والتشريعات لا تخضع لهوى الأنفس ، إطلاقاً .

وبشـرت "زينب" بما أوحى الله تعالى به لرسوله (ﷺ) من خطبتها ـ بعـد طلاقها مـن "زيـد" وإنقضـاء عدتها ـ، فتركت ما كان بيدها مما يشغلها، وقامت تصلى لربها شاكرة حامدة[1] .

وكانـت ولـيمة العُـرْس حافلـة مشـهورة ، إذ ذبـح المصـطفى (ﷺ) شـاة، وأمـر مـولاه "أنـس بـن مـالك" أن يدعـو الناس إلى الوليمة ، فترادفوا أفواجاً ، يأتى فوج ثم يخرج ، ثم يدخل فوج آخر .

ولكـن بعضـاً مـن الضّـيوف اسـتأنس بهم المقام فأطالوا ، وقد ثقل ذلـك على رسول الله (ﷺ)، ثم انصرفوا ، بعدها أسدل النبى (ﷺ) ستر البـاب، وأنزلـت آيـة الحجـــاب وأدب الزيارة إلى بيت النبى (ﷺ) .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ (الأحزاب : ٥٣)

وهـذا تشـريع آخـر رافـق زواج "زينـب" ـ رضى الله عنها ـ وكان زواجهـا فى السنة الخامسة من الهجرة ، وقد بلغت خمسة وثلاثين سنة .

---

(١) مسلم فى صحيحه .

ودخلت بيت النبوة على ضرائر ، ولكنها ما فارقتها كبرياؤها . فكانت تقول لهن : (أنا أكرمكن ولياً ، وأكرمكن سفيراً : زوجكن أهلكن وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سماوات) .

أمضَتْ " زينب " ـ رضى الله عنها ـ خمس سنوات فى بيت النبوة ، فكانت مثالاً للزوجة الصالحة ، العابدة الخاشعة الأواهة .

وكانت صنّاعة . . . تعمل بيديها . . . وتبذل نفسها فى العمل ، وتتصدق بما يعود عليها نفقه فى سبيل الله وتقرباً إليه تعالى ، شهدت لها " عائشة " بذلك .

وقالت عنها أم سلمة رضى الله عنها :ـ

(كانت " زينب " لرسول الله (ﷺ) معجبة ، وكان يستكثر منها ، وكانت صالحة قوامة ، صوامة ، صناعة . وتتصدق بذلك كله على المساكين)

ورُوى عن " عائشة " ـ رضى الله عنها ـ أيضاً : (قالت : قال رسول الله (ﷺ) : " أسرعكن لحاقاً بى أطولكن يداً " فكنا إذا اجتمعنا فى بيت إحدانا ـ بعد وفاة رسول الله ـ نمد أيدينا فى الجدار نتطاول ، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت " زينب بنت جحش " ولم تكن بأطولنا ، فعرفنا حينئذ أن النبى (ﷺ) أنما أراد طول اليد بالصدقة ، وكانت " زينب " امرأة صناع اليدين ، تدبغ وتخرز ، وتتصدق فى سبيل الله)[1]

---

(١) السمط الثمين (ص: ١١٠) والاستيعاب : ٤/ ١٨٥١ ، والإصابة (٨/ ٩٣).

كمـا يـروى أن " عمـر بن الخطاب " ـ رضى الله عنه ـ . فى خلافته أرسـل إلـيها عطاءهـا اثـنى عشـر ألفـاً ، فجعلـت تقـول : (الـلهم لا يدركنى هذا المال فى قابل ، فإنه فتنة)[1]

ثـم قسـمته فـى أهل رحمها وفى أهل الحاجة ، فبلغ "عمر" ذلك ، فوقـف ببـابها وأرسـل إلـيها بالسلام وقال : بلغنى ما فرقت ، فَأُرْسِلُ ألف درهم تستبقينها .

وأرسل الألف . فتصدقت بها جميعاً ، لم تُبْق منها درهماً

وفى سنة عشرين من الهجرة حين حضرتها الوفاة قالت :

(إنـى قـد أعـددت كفـنى ، وإن عمـر ـ أمير المؤمنين ـ سيبعث إلىَّ بكفـن ، فتصـدقوا بأحدهمـا ، وإن اسـتطعتم أن تتصـدقوا بحقـوى[2] فافعلوا . .)

وصـلى علـيها أمـير المؤمـنين "عمـر" وشـيعها مـع أهل المدينة إلى " البقيع " ، وكانت أول زوجاته (ﷺ) ، لحاقاً به .

رضـى الله عـن أم المؤمنين " زينب بنت جحش " وأرضاها ورفع فى الجـنة منزلـتها ، وحشـرنا معهـا تحت لـواء المصطفى (ﷺ) ، وسقانا من حوضه الشريف شربةً لانظمأ بعدها أبداً .

---

(١) أخرجه مسلم بلفظ مقارب .

(٢) الحقو : الإزار .

جويرية بنت الحارث (رضى الله عنها)

- ❖ المصطلقية . . . . بنت سيد قومه "الحارث بن أبى ضرار" .
- ❖ الأسيرة التى أكرم الله بها قومها حين تزوجها رسول الله (ﷺ) .
- ❖ كان اسمها "برة" فسماها رسول الله (ﷺ) : "جويرية" .
- ❖ لاذت به (ﷺ) فاستجاب لها وأكرم سؤلها .
- ❖ قضى عنها كتابتها . . . . وأصدقها أربعمائة درهم .
- ❖ سابعةُ أمهات المؤمنين .

فى السنة السادسة من الهجرة ـ بعد الأحزاب وبنى قريظة ـ جاء الخبر إلى رسول الله (ﷺ) بأن بنى المصطلق ـ وهم حى من خزاعة ـ يجمعون الجموع لقتاله بقيادة زعيمهم "الحارث بن أبى ضرار" فخرج

إلـيهم يـبادرهم حتـى لقـيهم عـند مـاء لهـم يقـال له "المر يسيع"[1]، فقاتلـهم . . . وهـزمهم . . . ، ووقـع العديـد من نسائهم سبايا وفيهن "برة" بنت زعيمهم "الحارث" وسيقوا جميعاً إلى "المدينة" .

وكانـت "بـرة" قد وقعت فى سهم "ثابت بن قيس بن شماس"، فكاتبته[2] على حريتها وعتقها .

وأرادت "برة" أن تستعين برسول الله (ﷺ) على مكاتبتها ، فجاءته وهـو فـى بـيت "عائشـة" واسـتأذنت ، فقامـت إليها "عائشة" فرأت بالـباب فـتاة شـابة حلـوة ، مفـرطة الملاحة ، لايراها أحد إلا أخذت بنفسـه ، فكرهتها من النظرة الأولى ، وودت لو تحجز بينها وبين لقياها رسول الله (ﷺ)[3] .

لكن "برة" أصرت وألحت . . ، فأذعنت "عائشة" .

ووقفـت "بـرة" بـين يـدى رسـول الله (ﷺ) تقـول فـى ضـراعة واسـتعطاف : (يا رسول الله . . . . أنا بنت "الحارث بن أبى ضرار" ، سـيد قـومه ، وقـد أصـاب بنـى قومـى مـن البلاء ما لـم يخفَ عليك ، فوقعت فى السهم لـ "ثابت بن قيس" ، فكاتبته على نفسى، فجئتك استعينك على أمرى) .

فنظـر إلـيها رسـول الله (ﷺ) نظـرة إشـفاق وحـنان وعطـف . . وتدبر . . ، ثم قال :

---

(١) تسمى هذه الغزوة بـ غزوة "بنى المصطلق" أو "المر يسيع"

(٢) المكاتبة : الرقيق يكاتب على نفسه بثمنه ، فإذا سعى وأداه عتق .

(٣) كما جاء فى الرواية عن عائشة

(فهل لك فى خير من ذلك؟)

فقالت مستبشرةً : وما هو يا رسول الله؟

قال : (أقضى عنك كتابتك وأتزوجك!)

فأدركت "برة" أبعاد الجواب ، فقالت من غير تردد : نعم يا رسول الله .

فقال(ﷺ) : (قد فعلت) .

إن مصاهرة "بنى المصطلق" بابنة زعيمهم وسيدهم سيكون لها آثارها ونتائجها . . ! وتم الزواج ، وقضى عنها رسول الله (ﷺ) كتابتها ، وسماها "جويرية" . والتصغير فى العرف اللغوى عند العرب يحمل معنى التودد والتحبب ، وجويرية تصغير "جارية" .

وجاء أبوها "الحارث" مسالماً إلى المدينة يريد فكاك أسر ابنته التى سبيت ، وكان قد أخفى فى أحد شعاب المدينة بكرين[1] استحسنهما ، ودخل بغيرهما .

ودخل على رسول الله (ﷺ) وقال : يا "محمد" أصبتم ابنتى وهذا فداؤها ، فإن ابنتى لا يسبى مثلها ، فخلِّ سبيلها .

فأجابه (ﷺ) : (أرأيت إن خيرَّتُها . . . أليس قد أحسنت!!)؟

يعنى : إذا اختارتك فهى حرة !

فقال "الحارث" بلى:

---

(١) البكر : الفتى من الإبل .

فأتاها أبوها وذكر لها ذلك ، فقالت : (اخترت الله ورسوله) ، فسقط فى يد "الحارث" . وقبل أن يغادر المدينة سأله رسول الله (ﷺ) عن البكرين اللذين أخفاهما . . !

عندئذ انطلق لسان "الحارث" يقول : أشهد أنك رسول الله حقاً .

وأسلم "الحارث" ومعه "بنو المصطلق" .

هذه كرامة .

وهناك كرامة أخرى ، تحدثنا عنها السيدة "عائشة" - رضى الله عنها- فتقول ما معناه :

وما أسرع ما خرج الخبر إلى الناس أن رسول الله (ﷺ) ، قد تزوج بنت "الحارث بن أبى ضرار" ، فتداعوا لتكريم السيدة التى أعزها نبيهم بالزواج ، وأقبلوا على من بأيديهم من أسرى قومها فأرسلوهم أحراراً وهم يقولون : أصهار رسول الله (ﷺ) .

فما من امراة كانت أعظم بركة على قومها منها ، فقد أعتق بزواجها من رسول الله (ﷺ) أهل مائة بيت من بيوت "بنى المصطلق"[(1)]

وعاشت "جويرية" أم المؤمنين ، رضى الله عنها وهى لاتنسى تلك اللحظة الحاسمة فى حياتها : إذ نجت من عار السبى ، وأعتقت قومها من الأسر ، ودخلوا فى دين الله . . ، وكرمت بالزواج من سيد البشر- صلوات الله وسلامه عليه -.

---

(1) كانت "جويرية" -رضى الله عنها- زوجة لـ "مسافع بن صفوان" - المصطلقى- قبل رسول الله (ﷺ) .

عاشـت حـتى خلافة "معاوية بن أبى سفيان" ، وكانت وفاتها سنة ســت وخمسين للهجرة ، وصلى عليها "مروان بن الحكم" أمير المدينة ، ودفنت بـ "البقيع" .

رضـى الله عـن أم المؤمـنين "جويرية بنت الحارث" ، ورفع مقامها فى عليين ، وأجزل مثوبتها ، وألحقنا بها فى عباده الصالحين .

صفية بنت حيي (رضى الله عنها)

❖ بنت "حيي بن أخطب" أشد اليهود عداوة لرسول الله (ﷺ) وزعيم "بنى النضير".
❖ أسلمت وحسن إسلامها بشهادة المصطفى (ﷺ).
❖ اتهمت بحب "السبت" واليهود فقالت لسيدنا "عمر" : (أما "السبت" فإنى لم أحبه منذ أبدلنى الله به "الجمعة"، وأما اليهود فإن لى منهم رحماً فأنا أصلها)
❖ وضعت معبراً بين منزلها ومنزل "عثمان"، فكانت تنقل إليه الطعام والماء، وهو فى محنة الحصار.
❖ تاسعة أمهات المؤمنين ـ رضى الله عنهن ـ.
❖ كانت تقول : زوجى "محمد" (ﷺ) وأبى "هارون" وعمى "موسى" ـ عليهما السلام ـ.

مع مطلع السنة السابعة من الهجرة (شهر المحرم) كان فتح "خيبر" بعد معارك طاحنة وأيام عصيبة، ووقعت "صفية بنت حيي بن أخطب" فى السبى، وكانت زوجة لـ "كنانة بن الربيع بن أبى

الحقيق" صاحب حصن "القموص" وصاحب كنزهم ، وقد ضُرِبَتْ عنقه لأنه كذب على رسول الله (ﷺ) وارتضى العقاب لنفسه .

كانت "صفية" إذ ذاك في حدود السابعة عشرة من عمرها ، جميلة وحلوة ، ناصعة البشرة ، جاء بها "بلال" - رضى الله عنه - ومعها ابنة عم لها يقودهما إلى رسول الله (ﷺ) ، ومر على ساحة امتلأت بقتلى اليهود ، فأعولت ابنة عمها وصاحت وولولت ونفشت شعرها وحثت عليه التراب ، أما صفية فلزمت الصمت ، وكتمت أحزانها .

فلما رآهما رسول الله (ﷺ) قال لـ "بلال" : (أغربوا عنى هذه الشيطانة) - يعنى ابنة عم "صفية" ، ثم قال - وهو الرؤوف الرحيم - (أنزعت من قلبك الرحمة يا بلال "حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهم؟؟) . وعرف (ﷺ) أن بعضاً من الصحابة تنازعوا على "صفية" كل يريدها لنفسه ، فأمربها فحيزت خلفه وألقى عليها رداءَهُ، فكان ذلك إعلاماً بأنه (ﷺ) ، قد اصطفاها لنفسه .

ولم يكن ذلك استئثاراً ، بل حسماً للنزاع ، وأيضاً فإن ابنة الزعيم الرئيس "حيي" ، وزوجة الزعيم الرئيس "كنانة بن أبى الحقيق" لا يجدر أن تهان بالرق والسبى . ولقد عرض عليها المصطفى (ﷺ) - أن يكون عتقها وإسلامها صداقها ، فوافقت .

روى "أنس بن مالك" - رضى الله عنه - قال : (لما أخذ رسول الله (ﷺ) "صفية بنت حيي" قال لها : (هل لك فيَّ؟) قالت : يارسول الله قد كنت أتمنى ذلك فى الشرك ، فكيف أمكننى الله منه فى الإسلام!!) . ورأى رسول الله (ﷺ) تحت إحدى عينيْها خضرة ، فسألها عن سببها ، فقالت : رأيت رؤيا كأنَّ القمر وهو فى التمِّ قد

سـقط فـى حجـرى ، فرويـت ذلـك لـزوجى "كنانة" ، فلطمنى على خـدى وقـال لى: مـا هـذا إلا أنك تتمنين ملك الحجاز "محمداً" . وأراد رسـول الله (ﷺ) أن يبنى بها وقد عادوا من "خيبر" ، وكانوا على مقربة مـنها ، فأبـت ذلك عليه ، فوجد فى نفسه ، فلما كانوا فى "الصهباء" ـ بعـيداً عـن "خيـبر" ـ زفـت إلـيه ، ودخل بها ، وسألها : (ما حملك عـلى الامتـناع أولاً) فقالـت ـ رضـى الله عـنها ـ : خشيت عليك قرب اليهود .

وفى ليلة العرس قام "أبو أيوب الأنصارى" ـ خالد بن زيد ـ رضى الله عـنه ـ يحـرس خـيمة الرسـول (ﷺ) ، فـلما أصبح (ﷺ) ورأى "أبا أيوب" يحوم حول الخيمة .

سأله : (مالك يا أبا أيوب ؟) .

فأجابـه : يـا رسول الله . خفت عليك من هذه المرأة . . . قد قتلت أباها وزوجها وقومها ، وكانت حديثة عهد بكفر ، فخفتها عليك !!!

فدعا رسول الله (ﷺ) لأبى أيوب قائلاً : (اللهم احفظ "أبا أيوب" كما بات يحفظنى) .

وحـق لــ "أبـى أيـوب" أن يخشـى عـلى رسول الله (ﷺ) ، لا من "صـفية" ولكـن من غدر اليهود ، فما قصة "زينب" زوجة "سلام بن مشـكم" ببعـيدة وشـاتها المسـمومه الـتى قدمتها لرسول الله (ﷺ) تريد الـتخلص مـنه ، فلما ذاقها لفظها ولم يستسغها ، وأمر بـ "زينب" . فأقـرت ، فضـرب عنقها ، لأنها تسببت بوفاة صحابى كريم "بشر بن البراء" .

ودخلت "صفية" - رضى الله عنها - بيت النبوة ، وأقامت فى حجرة لها ، شأن أمهات المؤمنين - رضى الله عنهن- ولكن فى بيت الصحابى "حارثة بن النعمان" بعيداً عن أعينهن .

غير أن "عائشة" قصدتها متنقبة ، تنظر إليها ، وتستطلع ما قيل عن جمالها وحسنها ، بدافع الغيرة ، ولمحها رسول الله (ﷺ) فتتبع خطواتها من بعيد ، فرآها تدخل بيت "حارثة بن النعمان" ، فلما خرجت أمسك بثوبها . . وسألها : (كيف رأيت يا شُقَيْراء؟) .

فأجفلت . . . ، ثم قالت : رأيت يهودية .

فرد عليها رسول الله (ﷺ) : (لا تقولى ذلك . . . . فإنها أسلمت وحسن إسلامها) .

هذه التهمة بـ "اليهودية" لم تتوقف عند "عائشة" وحدها ، بل تعدتها إلى "حفصة" و "زينب بنت حجش" ، وغيرهن .

حتى إن "صفية" كانت تُبَلَّغُ ذلك ، فتبكى .

أتاها يوماً رسول الله (ﷺ) ودمعها يتحدر من مقلتيها غزيراً ، فسألها عن سبب ذلك ، فأخبرته بما تسمع ، فقال لها (ﷺ) : (ألا قلت لهما[1] : وكيف تكونان خيراً منى وزوجى "محمد" وأبى "هارون"[2] وعمى "موسى")!!؟

فنزل قوله (ﷺ) على قلب "صفية" برداً وسلاماً .

---

(١) "عائشة" و "حفصة"

(٢) ينتهى نسبها -كما روى- إلى "هارون" عليه السلام

وروى أن رسول الله (ﷺ) كان فى سفر له ، ومعه من نسائه "زينب بنت جحش" و"صفية" فاعتل بعير "صفية" فقال لـ "زينب" - وكان معها فضل - : (إن بعير صفية قد اعتل فلو أعطيتها بعيراً) .
فأجابت : أنا أعطى تلك اليهودية . . !!

فولى عنها رسول الله (ﷺ) مغضباً ، ويقال بأنه تركها شهرين أو ثلاثة . . ، أو هجرها . وظلت تلك العقدة تخالج نفوسهن حتى فى مرضه ووفاته (ﷺ) وقد مر على زواجة من "صفية" قرابة سنوات ثلاث ، فقد روى أن أمهات المؤمنين اجتمعن حول فراشه . . . ، فقالت : "صفية" إنى والله - يا نبى الله - لوددت أن الذى بك بى .

فما كان من أزواجه إلا أن غمزن ببصرهن ، وما راعهن إلا قول رسول الله (ﷺ) لهن : (مَضْمِضْنَ) ، فقلن فى دهشة : من أى شئ يا رسول الله ؟ فقال (ﷺ) : (من تغامزكنّ بها ، والله إنها لصادقة!!!) . واستمرت تلك النزعة حتى أيام خلافة "عمر" - رضى الله عنه - إذ جاءته جارية لـ "صفية" تقول : يا أمير المؤمنين إن صفية تحب السبت وتصل اليهود .

فأرسل إليها يستوضحها ، فأجابت : أما السبت فإنى لم أحبه منذ أبدلنى الله به الجمعة ، وأما اليهود فإن لى بهم رحماً فأنا أصلها .

ومن حقها - بل تجب عليها - صلة الرحم ، ولو كانوا مشركين ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾
(لقمان : ١٥)

وأمسكت صفية بجاريتها ، وقد عرفت بسعيها عليها ، فسألتها عما حملها على ذلك ؟ فقالت : الشيطان. فقالت لها "صفية" : إذهبى فأنت حرةً.

وكان لـ "صفية" - رضى الله عنها - موقف أيام الفتنة على "عثمان" - رضى الله عنه - موقف يذكر فيشكر ، فلقد آلمها ما تراه من الحصار والعزل ، وقطع الطعام والماء ، فأقامت معبراً بين منزلها ومنزل "عثمان" ، فكانت تنقل إليه الطعام والماء[1].

وعاشت - رضى الله عنها - إلى خلافة "معاوية بن أبى سفيان" ثم كانت وفاتها سنة خمسين من الهجرة ، وصلى عليها "مروان بن الحكم" ودفنت بـ "البقيع" مع أمهات المؤمنين.

رضى الله عن أم المؤمنين "صفية بنت حيي" وأرضاها ، ووفاها أجرها ، ورفع مقامها مع الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

---

(١) روى ذلك "ابن سعد" فى الطبقات.

رملة بنت أبى سفيان (رضى الله عنها)

- ❖ "أم حبيبة" . . . . وأم المؤمنين . . . !
- ❖ نأت عن الديار مع الأبرار . . . !
- ❖ ونأت عن النسب إلا التقوى . . . !
- ❖ وصبرت واحتملت . . . فكوفئت . . . !
- ❖ دفـع "النجاشـى" ملـك الحبشـة مهـرها عـن رسـول الله (ﷺ) .
- ❖ كـان اللقـاء بيـنها وبـين رسـول الله (ﷺ) بعـد فـتح "خيبر" . . . ، فكانت الفرحة فرحتان .

ولدت "رملة" رضى الله عنها قبل البعثه بسبعة عشر عاما وأسلمت مبكـرة مـع زوجهـا "عُبَـيْد الله بـن جحش" وهاجرت معه إلى الحبشة وكانت حاملاً . . . وهناك ولدت ابنتها "حبيبة"

فـى ذات لـيلة رأت رؤيـا . . . رأت زوجهـا "عبـيد الله" فى أسوأ صورة . . . !

وبعـد أيـام قلائـل تنصَّـر زوجهـا وأكب على الخمر يعبُّ منها ولم تـنجح "رملـة" فى إثنائه عما هو فيه ففارقته . . . ! ولم يلبث أن مات وترملت "أم حبيبة" !!

وكـان التواصُل بين رسول الله (ﷺ) والمهاجرين إلى الحبشة لا ينقطع يـزودهم بأخـبار المسـلمين ومـا يجـدّ مـن وحى وأحكام وكذلك كانوا يفعلون يبعثون مع الرسل أنباءهم تباعا إلى رسول الله (ﷺ) .

ومـا مـن شك فى أن بعد "أُم حبيبة" عن الوطن والأهل والمسلمين وكـذلك موت زوجها وترملها كل ذلك كان له أثره على نفسيتها حزنا وهمـا وغمـاه ولكـنها ـ رضـى الله عنها ـ كانت تلوذ بإيمانها وإسلامها وتلجأ إلى الله فتجد الأمن والأمان والراحة !!

هل تُترك "أم حبيبة" فى محنتها . . . !؟

لا والذى بعث "محمداً" (ﷺ) بالحق

لقـد سمعـت طـرقا علـى بابها فقامت وفتحت ، فإذا جارية اسمها "أبـرهة" مـن عـند النجاشـى تقول لها : (إن الملك يقول لك : وكلى عنك من يزوجك من نبىٍّ العرب ، فقد أرسل إليه ليخطبك له) .

كـادت الفـرحة تطـير بهـا . . فنـزعت مـن يدها سوراين من فضة ألبسـتهما للجاريـة حـلاوة البشـرى ، وأرسلت إلى كبير المهاجرين من قومها "بنى أمية" "خالد بن سعيد بن العاص" توكله فى زواجها .

ودعا النجاشى المهاجرين إلى قصره فلما اكتملوا قال : (إن " محمد ابن عبد الله " (ﷺ) كتب لى أن أزوجه " أم حبيبة بنت أبى سفيان " ، فمن أولاكم بها؟)[1] .

قالوا : " خالد بن سعيد بن العاص " قد وكَّلَتْهُ .

فقال له النجاشى : فزوِّجها من نبيكم ، وقد أصدقْتُها عنه أربعمائة دينار .

فقال " خالد " : قد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله (ﷺ) وزوجته " أم حبيبة "

وأوْلم لهم " النجاشى " وليمة الزواج قائلاً : اجلسوا فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج

وفى صباح اليوم التالى جاءت جارية النجاشى إلى " أم حبيبة " تحمل إليها هدايا نساء الملك من عود وعَنْبر وطيب ، فقدمت اليها " أم حبيبة " خمسين ديناراً من صداقها وقالت : كنت أعطيتك بالأمس السوارين ولم يكن بيدى شئ من المال . وقد جاءنى الآن من الله تعالى .

فأبت الجارية أخذها ، كما ردت السوراين ، وقالت : إن الملك أمرنى أن لا آخذ شيئا ، وقد أجزل لى العطاء وهذه هدايا نساءه إليك .

فتقبلتها بقبول حسن ، وحمدت الله تعالى .

---

1)) كان رسول رسول الله (ﷺ) الى النجاشى فى شأن الزواج " عمرو بن أميه الضمرى " ، وفى قوْل " شر حبيل بن حسنة " والأول أرجح .

ومـرت أعوام ، حتى كان فتح "خيبر" وعاد المهاجرون من الحبشة إلى المدينة وعادت معهم "أم حبيبة" ـ رضى الله عنها ـ.

ومما يؤثـر عـن النبـى (ﷺ) مقولـته الشهيرة عندما استقبل أصحابه المهاجـرين الـذين طالـت غيبـتهُم : (لا أدرى بأيهمـا أسَرُّ فتح خيبر أم بقـدوم جعفـر وإخـوانه). ومن التوافق العجيب أن يكون زواجه (ﷺ) مـن " صـفية بنت حيى " زعيم "بنى النضير" مترافقاً مع بنائه بـ "أم حبيبة بنت أبى سفيان" زعيم قريش.

ولقـد اشـتهر علـى لسـان "أبـى سفيان" انه قال ـ عندما علم بعقد رسول الله (ﷺ) على ابنته "أم حبيبة" : (ذلك الفحل لا يجدع أنفه) .

وأقامـت رضـى الله عـنها إلى جانـب أزواجـه (ﷺ) تعـرف قـدرها ومكانتها وحدودها ، ولا تنخرط معهن فى غيرتهن .

وطـويت صفحات الهجرة والمعاناة ، بكل أحزانها وآلامها ، ومحنها التـى صقلت شخصية "أم حبيبة" رضى الله عنها ، وفتحت صفحات جديدة تشرق منها أنوار الإيمان المصفى .

وكـان أعظمهـا وأسماها موقفها من أبيها "أبى سفيان" ، يوم قدم المدينة سفيراً لقريش التى نقضتْ عهد الحديبية ، إذ جاء المدينة مستنكراً ما حدث ليؤكد العهد ، ويجدد المدة .

وقصد أولاً إلى بيت ابنته "أم حبيبة" .

وفوجـئت ـ رضـى الله عنها ـ به يدخل بيتها ، ولـم تكن قد رأته منذ هجـرتها إلى "الحبشـة"(١) ، فـوقفت تجاهـه متحيرة . . . لاتدرى ماذا تفعل !؟

---

(١) قرابة : ثمانية عشر عاماً.

فسلم ودخل ، وأراد أن يجلس على فراش رسول الله (ﷺ) ، فبادرت وطوته . . . ، فقال في استنكار وتعجب: يا بنية أرغبت بي عن الفراش أم رغبت به عني!؟ .

وعند جوابَ " أم حبيبة "ـ رضي الله عنها ـ تنحني الرؤوس إجلالاً وتخشع النفوس احتراماً ، وتصمت الألسنة وينطق الدهر وحده ، ليقول كلمته الفصل ، بين الإيمان والكفر .

قالت رضي الله عنها : (هو فراش رسول الله (ﷺ) وأنت رجل مشرك، فلم أحب أن تجلس عليه) .

فقال " أبو سفيان " مغضباً وهو يغادر البيت : لقد أصابك يابنية بعدي شر

فقالت : بل الخير كل الخير .

وظل أبوها " أبو سفيان " على ولائه للشرك حتى كان فتح مكة فأسلم وحسن اسلامه ، فأزيح عن كاهل " أم حبيبة " عبء باهظ .

وظلت هي على وفائها وصدق إيمانها لبيت النبوة ، حتى في أشد الأوقات حرجاً ، فما عرف عنها موقف ولا كلمة تعبر عن ميل إلى جهة دون أخرى ، وقد اشتد النزاع والصراع في أواخر خلافة " عثمان " ـ رضي الله عنه ـ.

وحين أقعدها المرض ، وحانت ساعة الفراق ، واللحاق بالرفيق الأعلى ، واجتمعت حولها الضرائر ، قالت لـ" عائشة " : (قد يكون بيننا ما يكون من الضرائر ، فغفر الله لي ولك ما كان من ذلك) فحللتهاْ " عائشة " واستغفرت لها ، فقالت أم حبيبة : (سَرَرْتني سَرَّك الله) .

وكذلك كان بينها وبين "أم سلمة" ـ رضى الله عنهن ـ.

وكانـت وفاتهـا رضـى الله عـنها سـنة أربعـة وأربعين للهجرة [(١)] ، وكـان أخـوها "معاوية" فى سدة الخلافة ، ورغم انها أخت الخليفة ، لـم تَنْس أبدا أنها زوجة النبى (ﷺ) وأم المؤمنين.

ورقدت بسلام وأمان واطمئنان فى "البقيع".

رضـى الله عـن أم المؤمنين "أم حبيبة ـ رملة بنت أبى سفيان" وبوأها منزلتها فى الجنه ، وأكرم مثواها.

---

(١) وفى قول سنة اثنتين وأربعين

ميمونة بنت الحارث "الهلالية" (رضى الله عنها)

- آخر أمهات المؤمنين
- شقيقه "أم الفضل"[1] زوجة "العباس بن عبد المطلب"
- كان إسمها "بَّرة" فسماها رسول الله (ﷺ) "ميمونة"
- قال رسول الله (ﷺ) عنها وعن أخواتها : (الأخوات المؤمنات)
- قالت عنها "عائشة" ـ رضى الله عنها ـ : (أما إنها كانت ـ والله ـ من أتقانا وأوصلنا للرحم)

فى أواخر العام السابع للهجرة وبعد فتح "خيبر" تجهز رسول الله (ﷺ) والمسلمون لـ عمرة القضاء ، حسب ما نص عليه صلح الحديبية ، فلما قدموا مكة ، أخْلتها قريش ، ودخلها المسلمون

---

(١) إسمها "لبابة الكبرى" ، أما أختها "لبابة الصغرى" فهى أم خالد بن الوليد ـ رضى الله عنه ـ فـ" عبد الله بن عباس" "وعبد الله بن جعفر بن ابى طالب" و"خالد" أولاد خالات.

يتقدمهم رسول الله (ﷺ) على ناقته " **القصواء** " ، و " **عبد الله بن** رواحة " ، مُمْسك بزمامها ينشد حادياً :

خلوا بنى الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير فى رسوله
يارب إنى مؤمن بقيله أعرف حق الله فى قبوله

وتجاوبت أرجاء مكة بالتلبية : (لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك لبيك) .

وارتفع صوت النبى (ﷺ) يقول : (لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده) .

وكان المشركون قد أرجفوا بأن المسلمين فى ضعف ، قد أرهقتهم حُمّى يثرب " المدينة " وانتظروا . . ونظروا أن يروا ذلك ، فأمر النبى (ﷺ) أصحابه أن يرملوا[1] فى طوافهم حول الكعبة الشريفة ، الاشواط الثلاثة الأولى ، فيردوا فرية المشركين إلى نحورهم .

وقد فعلوا . . . !

وخفق قلب "برة بنت الحارث الهلالية " وهى ترى رسول الله(ﷺ)

وكانت قد ترملت من زوجها " **أبى رهم بن عبد العزى** "[2] **وهى** الآن فى كنف أختها "**أم الفضل**" **زوجة** "**العباس بن عبد المطلب**" عم النبى (ﷺ) وهى على الإسلام والايمان !

فأفضت بمكنون فؤادها إلى أختها " أم الفضل " ، وأنها تود أن تكون زوجة لرسول الله (ﷺ) ونقلت " أم الفضل " إلى زوجها ما ترغب به " برة " ، وأنها قد وكلته بأمرها .

---

(١) الرَّمْلُ : الهرولة .
(٢) اختلف الرواة فى اسم الزوج .

ولم يتردد "العباس" ـ رضى الله عنه ـ فى حمل أمانة المسئولية وإبلاغ الرسالة، مضى إلى رسول الله (ﷺ)وخاطبه فى أمر "برة" ، وعرض عليه الزواج منها ، فاستجاب (ﷺ) ، وأصدقها أربعمائة درهم ، وبعث ابن عمه "جعفر بن أبى طالب" وكان زوجاً لأختها من أمها "أسماء بنت عُمَيْس" يخطبها، وأنكَحَهُ اياها ـ ولياً عنها ـ عمه "العباس" .

فلما نقل خبر الموافقة إليها وكانت على بعير رمت نفسها من على البعير وقالت : (البعير وما عليه لرسول الله (ﷺ)) [١]

كانت مدة إقامة المسلمين بمكة ثلاثة أيام حسبما اتفق عليه فى صلح الحديبية ، فلما قاربت نهايتها جاء (ﷺ) رسلُ قريش يطلبون اليه مغادرة مكة فقال لهم متلطفا :

(ما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه ؟؟)

فردوا فى جفاء وغلظة : لا حاجة لنا فى طعامك فاخرج عنا .

وابتسم النبى (ﷺ)

وأمر أصحابة أن بتجهيزوا للرحيل ، وترك مولى له اسمه "أبا رافع" كى يأتيه بـ"برة" .

وفى مكان يدعى "سرف" ـ قرب "التنعيم" ـ على مسافة قريبة من مكة لحق "أبو رافع" برسول الله (ﷺ) ومعه "برة" .

---

(١) ذكر ذلك السهيلى فى الروض الأنف

وهناك ـ وكان قد خرج من محيط الحرم ـ بنى رسول الله (ﷺ) بـ "برة" ، وسماها "ميمونة" تيمنا بالمناسبة العظيمة التى دخل بها "مكة" ـ أم القرى ـ بعد غياب استمر سبعة أعوام .

ثم انتقلت معه إلى المدينة ، وأفردت لها حجرة شأن غيرها من أمهات المؤمنين ، فأقامت راضية مرضية ، فلم يعهد عنها إلا أنها صوامة قوامة فعَّالة للخير .

وعاشت ـ رضى الله عنها ـ بعد وفاة رسول الله (ﷺ) حتى سنة إحدى وخمسين من الهجرة .

وصادف أنها كانت تحج ذلك العام ، وداهمها المرض ، فأوصت أن تدفن بعد وفاتها فى المكان الذى بنى فيه رسول الله (ﷺ) بها فى "سَرِف" .

وكان معها ابن اختها "عبد الله بن عباس" ـ رضى الله عنهما ـ ، فحمل جثمانها وترفق بها حتى وارها حيث أوصت .

رضى الله عن آخر أمهات المؤمنين "ميمونة بنت الحارث الهلالية" ، وأسكنها الفردوس الأعلى ، وحشرنا معها تحت لواء المصطفى (ﷺ) .

"مارية القبطيـة" ـ رضى الله عنها ـ

❖ هدية من مصر !

❖ "هاجَرُ" لـ "إبراهيم" ـ عليه السلام ـ ومارية لـ "محمد" (ﷺ)

❖ (استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورَحماً)[1]

كان "حاطب بن أبى بلتعة" ـ رضى الله عنه ـ رسولَ رسول الله (ﷺ) إلى "المقوقس" ـ عظيم القبط فى مصر سنة سبع من الهجرة يحمل إليه رسالته وفيها :

(بسم الله الرحمن الرحيم من "محمد بن عبد الله" إلى "المقوقس" عظيم القبط ؛ سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا

(١) رواه مسلم فى صحيحه .

يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران : ٦٤))

وهـذه الرسالة الكريمة واحدة من الرسائل التى بعث بها رسول الله (ﷺ) إلى الملـوك والحكـام والرؤسـاء يدعوهـم إلى الاسلام ، وكان ذلك بعـد "صلح الحديبية" ، وقد اعترفت قريش له (ﷺ) بالسيادة السياسية والسلطة الزمنية ، ولم تؤمن به كرسول ونبى .

ولقـد اختلفـت ردود هؤلاء الملوك والحكام والرؤساء بين سامع غير مجيـب ، أو سـامع مـنكر ، أو قـاتل للرسول وممزق للرسالة ـ كما فعل كسرى ـ .

أما "المقوقس" فقد قال لـ "حاطب" بعد أن قرأ الرسالة :

(قـد كنت أعلم أن نبياً قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج بالشام وهناك مخـرج الأنبـياء ، فـأراه قـد خـرج مـن أرض العـرب ، ولكـن القبط لا تطاوعنى) .

ثم دعا كاتبه فأملى عليه الرد :

(. . . أمـا بعـد ، فقـد قـرأت كـتابك ، وفهمـت ما ذكرت فيه وما تدعـو إلـيه ، وقـد علمـت أن نبـيا قـد بقـى ، وكنـت أظـن أنـه يخرج بالشـام ؛ . وقـد أكرمت رسولك ، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم ، وبكسوة ومطية لتركباها ، والسلام عليك) .

وكـان مضـمون الهديـة ـ بالإضافة إلى الجاريتين ـ عبداً خصيًا إسمه "مـابور" وألـف مـثقال ذهـباً ، وعشرين ثوبا لينا من نسيج مصر [١] ،

---

(١) تعرف بـ "القباطى"

وبغلة شهباء إسمها (دلدل) وحماراً إسمه "يعفور" وعسل من "بنها" وبعض العود والند والمسك .

وكانت الجاريتان أختين : "مارية" و "سيرين" ولدنا فى قرية من قرى صعيد مصر تدعى "حفن" قريبة من بلدة "أنْصنا" على الضفة الشرقية لنهر النيل تجاه الأشمونين ، كان أبوهما قبطيا وأمهما مسيحية رومية .

إنتقلتا مع مطلع شبابهما إلى قصر" المقوقس" حيث كانت نشأتهما وتربيتهما ونضوجهما .

ويروى بأن "حاطباً" رغبهما فى الإسلام قبل بلوغهما أرض "الحجاز" ودخولهما المدينة ، وحدثهما عن رسول الله (ﷺ) حديثاً شيقاً ممتعاً ، فألقى الله تعالى فى قلبيهما نور الإيمان فأسلمتا .

وتلقاهما رسول الله (ﷺ) ، فأكرمهما وأعزهما ، واختار "مارية" سُرِّيةً له ، وأهدى أختها "سيرين" إلى صاحبه وشاعره "حسان بن ثابت" ـ رضى الله عنه ـ .

وأنزل "مارية" فى بيت "حارثة بن النعمان" ، قريباً من المسجد ، وكان يأتيها ويستكثر منها محباً لها ، معجباً بها ، لذا ضرب عليها الحجاب شأن أمهات المؤمنين ـ رضى الله عنهن ـ.

بعد مضىِّ عام . . . حملت "مارية" من رسول الله (ﷺ) . . . ، ثم وضعت غلاماً سماه رسول الله (ﷺ) "إبراهيم" تيمناً بأسم أبى الأنبياء "إبراهيم" عليه السلام .

وملأت الفرحة قلب رسول الله (ﷺ) وعمت دور المسلمين .

واختار لها رسول الله (ﷺ) مقاماً جديداً فى ضاحية "العوالى"[1] .
وقال عند الولادة : (لقد حرَّرها ولدها) .

فأصبحت أم ولد ، بعد أن كانت سرية .

وتنافس الأنصار فى إرضاع "إبراهيم" . . . . ، كما خصص رسول الله (ﷺ) سبعاً من الماعز كى ترضعه بلبنها إذا شح ثدياها .

ومرت شهور . . . . والطفل الكريم ينمو ويكبر ، ورسول الله(ﷺ) يزداد تعلقاً به وحنواً عليه

ترى هل عانت مارية ـ رضى الله عنها ـ من غيرة ـ أمهات المؤمنين . . . !؟

تقول السيدة "عائشة" ـ رضى الله عنها ـ فيما روته عنها "عمرة بنت عبد الرحمن الأنصارية" : (ما غرتُ على امرأة إلا دون ما غرْتُ على "مارية" ، وذلك أنها كانت جميلة جعدة ، فأعجب بها رسولَ الله (ﷺ) وكان أنزلها أول ما قدم بها فى بيت لـ "حارثة بن النعمان الأنصارى" فكانت جارتنا ، فكان عامَّة الليل والنهار عندها ، فجزعت فحولها إلى "العالية" ، وكان يختلف ، اليها هناك فكان ذلك اشد علينا ، ثم رزقها الله الولد وحرمناه منه)

ويروى أنه (ﷺ) حمل "ابراهيم" يوماً بين ذراعيه الى "عائشة" ، ودعاها فى تلطف وبشر لترى فى الوليد الصغير من شبه بأبيه الكريم (ﷺ) فأحست "عائشة" بالمرارة وكادت تبكى ثم قالت : ما أرى بينك وبينه شبهاً .

---

(١) وكانت تعرف قديما بـ (العالية) .

فانصرف عنها رسول الله (ﷺ) وقد أدرك ما يعتمل فى نفسها بعد مرور عام ونصف ـ ثمانية عشر شهرا ، أو سبعة عشر ـ وقد أخذ الطفل يكبر ويدرك ويناغى ، ولأمر قدره الله تعالى وقضاه بحكّمته ومشيئته ذوى العود وأفل النجم وغرب الهلال ! !

وقع " إبراهيم " فريسة الحمى ، ولم تنفع فيه المعالجة ، وجاء الوالد الرسول (ﷺ) لعيادته وهو فى غاية الألم والحزن فأخذه من حجر أمه واحتضنه فى حجره الكريم وذرفت عيناه الشريفتان وقال : (إنا يا " إبراهيم " لا نغنى عنك من الله شيئاً) .

ثم فاضت الروح الطاهرة إلى ربها عز وجل ، فأنحنى رسول الله ﷺ على الجثمان وقبله وقال : (يا " إبراهيم " لو لا أنه أمر حق ووعد صدق ، وإن آخرنا سيلحق بأولنا لحزنا عليك حزناً هو أشد من هذا ، وإنا بك يا " إبراهيم " لمحزونون ، تبكى العين ويحزن القلب ولا نقول ما يسخط الرب) .

والتفت (ﷺ) إلى " مارية " وقال لها مواسياً : (إن " إبراهيم " ابنى وإنه مات فى الثدى وإن له لظئرين تكملان رضاعه فى الجنه) [١]

وغسل . . وحمل على سرير صغير . . وصلى عليه رسول الله (ﷺ) . . ودفن فى البقيع .

وصادف حينئذ إنكساف الشمس ، فقال بعض الناس : (إنها انكسفت لموت " إبراهيم ") فالتفت اليهم رسول الله(ﷺ) وقال : (إن

---

(١) صحيح مسلم .

الشـمس والقمـر آيـتان مـن آيـات الله . . لا تخسـفان لمـوت أحـد ولا لحياته)[1]

فعلى الرغم مما كان فيه (ﷺ) من حزن وأسى ـ شأن أى قلب آدمى ـ لم يغفل ولم ينس أمانة الرسالة والنبوة!!

ولا بـد مـن ذكر حادثة إفك اتهمت بها "مارية" ـ رضى الله عنها ـ غيرة وحسداً وحقداً لكن الله تعالى الذى تولاها برأها. . . ، ولم تأخذ حيزاً زمنياً طويلاً!!

فقـد روج بعـض المـنافقين أن خادمهـا "مابور" الذى قدم معها من مصر كان يأتيها وقالوا: (علج[2] يدخل على علجة. .)

فأمـر رسـول الله (ﷺ) "علياً" ـ كرم الله وجهه ـ أن يتأكد ثم يضرب عـنق "مابـور" فأتـاه "علـىٌّ" فوجده فى ركيّ[3] يتبرد فيها فقال له: أخـرج!! فـناوله يـده فأخـرجه عاريـا فـإذا هـو مجـبوب[4] فكف عنه "على" وعاد إلى رسول الله (ﷺ) فقال: (يا رسول الله إنه مجبوب)[5]

وعاشـت "ماريـة" ـ رضى الله عنها ـ حتى أدركتها الوفاة سنة ست عشـرة فـى خلافـة أمـير المؤمنين "عمر بن الخطاب" ـ رضى الله عنه ـ وكانـت بعد وفاة رسول الله (ﷺ) تعيش وكأنها فى عزلة تطوى أحزانها

---

(١) صحيح مسلم.
(٢) العلج: الكافر من الأعاجم الذين ليسوا عربا
(٣) الركى: البئر قبل ان تطوى (تسوى جدرانها بالحجارة)
(٤) مجبوب: مقطوع آلة الذكورة.
(٥) صحيح مسلم.

فـي قلـبها ولا تغـادر سـكنها إلا لـزيارة قبر المصطفى (ﷺ) أو زيارة قبر ولدها "إبراهيم" فى البقيع أو زيارة أختها "سيرين"

ويـروى بـأن "عمـر" ـ رضـى الله عـنه ـ حشـد الناس لجنازتها يوم وفاتها وصلى عليها ودفنت فى البقيع .

رضـى الله عـن "ماريـة القبطـية" وأرضـاها ورفع فى الجنه منزلتها ومثواها

ولا يفوتـنا أن نذكّر أنفسنا والمسلمين عامة بوصية رسول الله (ﷺ) : (إنكم ستفتحون مصر فأحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمّـةً ـ ورحماً) .

ريحانة بنت شمعون (رضى الله عنها)

- بين اليهودية والإسلام!
- اختلف فى نسبها هل هى قُرظيَّة أم نضيرية؟
- واختلف ايضا فى عتقها !!
- ولم يختلف فى "اسلامها" إذ أجمعوا على وفاتها قبل وفاة رسول الله (ﷺ) وأنها دفنت فى "البقيع"

قيل هى: "ريحانة بنت شمعون بن زيْد" وقيل: "ريحانه بنت زيد ابن عمرو بن قنافة أو خنافة"[1] وقال ابن اسحاق": هى من "بنى عمرو بن قريظة" وقال "ابن سعده": هى "ريحانة بنت زيد بن عمرو ابن خنافة بن شمعون بن زيد" من "بنى النضير" وكانت متزوجة رجلاً من بنى "قريظه" يقال له "الحكم" ثم روى ذلك عن الواقدى[2] وَجاء فى اعلام النساء لـ"عمر رضا كحالة" (ج: ١) (ص: ٤٧٤).

---

(١) الإصابة (ج: ٤) (ص: ٣٠٢)
(٢) الإصابه (ج: ٤) (ص: ٣٠٢).

" مـن ربـات الجمـال والأدب سـبيت مـع "بـنى قريظة" سنة ست من الهجرة وقد تعصَّت بالاسلام وأبت الا اليهودية فأمر بها رسول الله(ﷺ) فعزلـت ، ثـم دخـل رسـول الله (ﷺ) علـيها فقال لها : (إن اخترت الله ورسوله اختارك رسول الله لنفسه) فقالت : " إنى اختار الله ورسوله " فـلما أسـلمت أعـتقها وتزوجها وأصدقها اثنتى عشرة أوقية[1] وأعرس بهـا فـى بيـت "المـنذر بـن قـيس" كـان يقسـم لها كما يقسم لنسائه ، وضرب عليها الحجاب .

وكـان رسـول الله (ﷺ) معجـباً بهـا ، وكانـت لاتسـأله إلا أعطاهـا ذلك .

ولـما ضرب عليها الحجاب غارت عليه غيرة شديدة ، فطلقها تطليقةً وهـى فـى موضـعها لم تبرح ، فشق عليها وأكثرت البكاء فدخل عليها رسول الله (ﷺ) وهى على تلك الحال فراجعها ـ طبقات ـ "ابن سعد" .

وفـى روايـة أن رسـول الله (ﷺ) عـرض عليها أن يتزوجها ويضرب علـيها الحجاب ، فقالت : يا رسول الله بل تتركنى فى ملكك فهو أخف علي وعليك[2] .

وتوفيـت سـنة مرجع رسول الله (ﷺ) من حجة الوداع ، ودفنت فى البقيع بـ "المدينة" أ ـ هـ

ويتبـيَّن لـنا أن بـين وقوعهـا فـى السـبى ووفاتهـا مدة طويلة قاربت السنوات الأربع ، مما يجعلنا نميل إلى ما رواه "ابن اسحاق" عن إسلامها وبقائها فى ملك اليمين .

---

(١) أربعمائة درهم كما كان يصدق نسائه (ﷺ)

(٢) تاريخ الطبرى والسيرة لـ(ابن هشام) والأكثرون على ذلك

(كان رسول الله (ﷺ) سباها فأبت إلا اليهودية ، فوجد رسـول الله (ﷺ) فى نفسه ، فبينما هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه فقال : (هـذا ثعلـبة بن سَعْية يبشرنى باسلام "ريحانه") فبشره، وعرض عليها أن يعـتقها ويتـزوجها ويضرب عليها الحجاب فقالت : يا رسول الله بل تتركنى فى ملكك فهو أخف علي وعليك ، فتركها) .

رضـى الله عـنها وغفـر لنا ولها وألحقها بالصالحين من عباده وأكرم نُزُلها ومثواها

الخاتمة

وأخيراً . . ! !

فلقد طوَّفنا مع (زوجات) الأنبياء ـ عليهم السلام ـ دهوراً وقروناً ، ووقفنا على جانب كبير وهام من حياتهن ، وما كان لكل منهن من دور فى حياة أزواجهن ، إيجابا أو سلبا ، وكان أكثرهن على مستوى ما حُمِّله النبى من أمانه الرسالة ، ومسؤلياتها .

ولقد كان من موجبات العمل ومقتضيات البحث أن يكون مسك الختام الحديث عن زوجات سيدنا رسول الله (ﷺ) ، "أمهات المؤمنين" وغيرهن ـ رضى الله عنهن ـ.

مع الإشارة الواضحة إلى الظروف التى رافقت زواج كل منهن . . كى تنتفى من ذهن القارئ شبهتان أرجف بهما دعاة السوء من غربيين ومستغربين ، للنَّيل من مقام سيدنا رسول الله (ﷺ) وهما :

١ ـ شبهة التعدد ٢ـ وشبهة الاستكثار .

ولقد بينا ذلك فى مضمون الحديث والبحث ، دونما إسهاب ممل أو تطويل مخل .

ثم إن فى كتابات العلماء والباحثين ـ خصوصا فى هذا الموضوع ـ ما يغنى ويفيد .

وأسأل الله تعالى أن ينفعنا بما علمنا وينفع بنا ، ويوفقنا لما نحبه ويرضاه ، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير إنه نعم المولى ونعم النصير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى القدير .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المراجـــع

١ـ القرآن الكريم

٢ـ كتب الصحاح

٣ـ كتب السنن

٤ـ السيرة لـ (ابن هشام)

٥ـ السيرة لـ "ابن كثير" (٢) قصص الأنبياء "ابن كثير"

٦ـ قصص الأنبياء (عبد الوهاب النجار)

٧ـ السمط الثمين (المحبّ الطبرى)

٨ـ تاريخ الطبرى

٩ـ تاريخ ابن الأثير

١٠ـ سيدات بيت النبوة (عائشة عبد الرحمن)

١١ـ الرسول (بُودْلى) الترجمة العربية (فرج والسحار)

١٢ـ "توراة" أهل الكتاب.